بَرَاءَةُ يُونُسَ

فِي الحَدِيثِ وَالقُرآنِ

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

٢٠١٧م - ١٤٣٨هـ

المركز الإسلامي للدراسات
لبنان - بيروت - الضاحية الجنوبية - أوّل حي ماضي
بناية حجازي - ط1 - تلفاكس: 00961.1.274519
البريد الالكتروني: alhadi2@hotmail.com

المنشورات: بيروت - بئر العبد - سنتر الانماء 3 - 00961 70995421
البريد الالكتروني: dirasat14@gmail.com

براءة يونس

في الحديث والقرآن

السيد جعفر مرتضى العاملي

المركز الإسلامي للدراسات

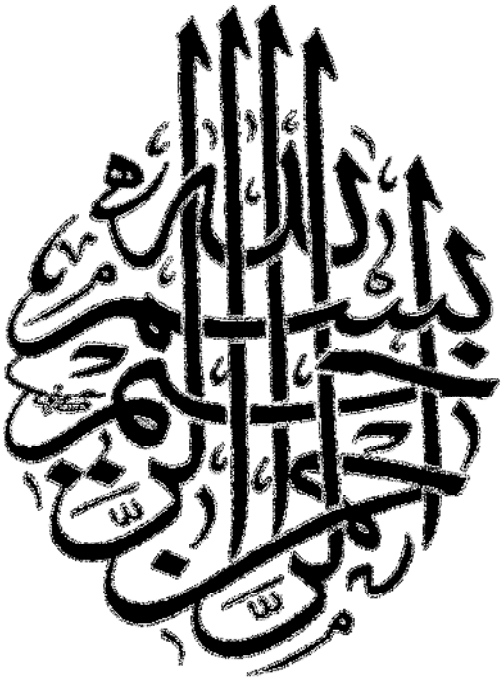

تقديم:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين، محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة على أعدائهم أجمعين من الأولين والآخرين إلى قيام يوم الدين.

وبعد.. فإن هذا التقديم ينقسم إلى قسمين:

أولهما: حديث مع القارئ..

والآخر: توضيح لا بد منه، فأقول:

حديث مع القارئ:

هناك موارد عديدة فهمها الكثير من الناس على غير وجهها، فوقعوا في المحذور، وانطلقت الشبهات والأباطيل، لتفتك بفكر الأمة، وتعصف بحقائق الدين، وكان الذين أثاروها أول ضحاياها.. كل ذلك كان بسبب عدم تدبرهم القرآن وفق ما أمرهم الله تعالى حيث قال: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ**

﴿أَقْفَالُهَا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[2].

وقد وفَّق الله سبحانه بمنِّه وكرمه للنظر في شطر من هذه الآيات في كثير من الموارد، فوجدنا: أن آيات القرآن التي ادَّعوا دلالتها على المعاني المخالفة للثابت القطعي في العقل والنقل ـ هي بنفسها ـ قد حملت الدلالات التي تكاد تكون صريحة أو ظاهرة على خلاف ما يقولون، وجاءت منسجمة مع تلك الحقائق القطعية، بل قد تصل في وضوحها إلى حد البداهة.

وقد ذكرنا في مؤلفاتنا المختلفة بعض المعالجات والإيضاحات للعديد من هذه الموارد، فراجع على سبيل المثال كتابنا آية التطهير، وكتاب براءة آدم، وكتاب تفسير سورة الضحى، فضلاً عن سائر مؤلفاتنا في الموضوعات المختلفة. وظهر لنا أن هذه الآيات من المحكمات، وليست من المتشابهات.

ولا نبعد إذا قلنا: إن قصة يونس في القرآن قد تعرضت لهذا التشويه، وأثيرت حولها الكثير من الشبهات.. مع أن في القرآن ما لا يدع مجالاً للشك في رد الشبهات التي أثاروها، والأباطيل التي نسجوها.

وقد حاولت في بعض الدروس التي خصصت بها بعض الإخوة الأكارم توضيح هذا الأمر، ببيان الدلالات القرآنية التي ذكرت هذه القضية، ثم بدا لنا أن نستخرجها، من أشرطة التسجيل لكي نعرضها بعد إصلاحها على من أحب الاطلاع عليها..

---

(1) الآية 24 من سورة محمد.

(2) الآية 29 من سورة ص.

ونحن لا ندَّعي أننا قد أحطنا خبراً بجميع ما أشارت إليه الآيات الشريفة، كما لا ندعي أننا لا نخطئ في بعض ما نعرضه على القراء الكرام..

ولكننا نقول:

إن أملنا كبير في القارئ الكريم: أن يتحفنا بما يجول في خاطره من ملاحظات، وما يجده فيما نعرضه عليه، من نقص وهنات، ونسأل الله سبحانه أن يزيده من توفيقاته، وأن يغمره بألطافه، وأن يشمله برحماته، فرحم الله من أهدى إليَّ عيوبي، وأعانني على إصلاح نفسي، وسددني في عملي..

توضيح لا بد منه:

وقبل أن أودِّع القارئ الكريم هنا، أود لفت نظره إلى أن وجود أمثال هذه الأمور في القرآن الكريم يزيده تألقاً وعظمة، ويظهر حقيقة إعجازه البياني الذي لم يزل، ولا يزال، وسوف يبقى يفرض نفسه على البشرية جمعاء عبر العصور والدهور.. فالتعامل مع هذا الأمر بغير هذه النظرة ظلم فاحش للقرآن، والحق، والدين.

وتوضيح ما نرمي إليه هنا هو كما يلي:

إن هذا الدين فيه عقائد، وأحكام، وآداب، وأخلاق، وسياسات، ومناهج، وحقائق، ودقائق لها صلة بجميع شؤون الحياة، وفيه بيانات للسنن والأسرار، التي يشتمل عليها كل هذا الكون..

وهذا يحتِّم: أن تكون لربان هذه السفينة، وقائد هذه المسيرة، هيمنة، وإشراف على حالات البشر، أفراداً أو جماعات، وأن يتمكن من رصد طموحاتهم،

وآمالهم، وآلامهم، وأحلامهم، وتخيلاتهم، وأوهامهم، وكل ما يخطر على بالهم، وأن يكون معهم، ويضبط حركتهم، ويهيمن على ذلك كله من موقع الخبير، والبصير، والعليم، والمدبر القدير، بما يمنحه من وسائل، وقدرات..

فبعث إليهم أنبياء، وجعل لهم أوصياء، وكشف عنهم حجب الغيب، وأعطاهم من ذلك كله وسواه ما يمكِّنهم من التدخل في كافة الشؤون التي يمكن أن تخطر على بال البشر..

أو أن تمر في خيالهم..

أو تنالها أوهامهم..

أو أن يفكروا فيها..

وأن يحركوها في أي اتجاه أرادوه، أو أي باب ولجوه.

وقد رأينا أنه تعالى قد يسَّر لأولئك الأنبياء والأوصياء مشاهدة الحقائق، والإشراف على الأسرار والدقائق، والأطوار المرتبطة بشؤون الخلائق، بصورة مباشرة.. فأرى إبراهيم «عليه السلام» ملكوت السماوات والأرض، وكانت رحلات الإسراء والمعراج لنبينا الأعظم «صلى الله عليه وآله» ﴿**لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا**﴾[1]، وقد بلغ به «صلى الله عليه وآله» إلى ﴿**سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى**﴾[2].

---

(1) الآية 1 من سورة الإسراء.

(2) الآيات 14 ـ 18 من سورة النجم.

وأنزل على أعظم رسله، وخير خلقه «صلى الله عليه وآله» كتاباً قد جاء ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[1]. وهو كتاب يقول تعالى عنه: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ الله﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[3].

وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾[4].

وبعد ما تقدم نقول:

إذا كان الله تعالى يريد أن يُنَزِّل قرآناً فيه كل هذه الحقائق والسنن والأسرار، والعقائد، والأحكام والمناهج، والسياسات، والأخلاق، والآداب، والقيم، وسواها، ويريد أن يلاحق كل التفاصيل، وكل شاردة وواردة في حياة البشر، ويهيمن على مسيرة البشرية، وكل حركتها، ويضبط حركة فكرها، ويهيمن على عقلها، وطموحاتها، وخيالها، في كل لحظات وجودها، منذ بدء الخلق، ولا ينتهي الأمر عند الخروج من الدنيا.. بل يوظف كل ما جرى في هذه الحياة في الحياة الآخرة، التي هي أسمى، وأسنى، وأرقى، وأبقى في كل حالاتها، وتقلباتها.

إذا كان الأمر كذلك، فإن من المستحيل أن يجمع كتاب واحد لا يتجاوز

---

(1) الآية 89 من سورة النحل.

(2) الآية 22 من سورة الحشر.

(3) الآية 38 من سورة الأنعام.

(4) الآية 31 من سورة الرعد.

عدد صفحاته مئات يسيرة من الصفحات ـ من المستحيل ـ أن يجمع كل هذه التفاصيل والحالات بالنسبة لكل فرد فرد، وبالنسبة لكل ما خلقه الله في هذا الوجود، وكل ما في السماوات والأرض من مخلوقات وسنن، وحقائق ودقائق وأسرار.. إلا أن يكون هذا الكتاب بحجم لا تسعه الدنيا..

فإن الآية المباركة تقول: ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾[1].. هذا بالنسبة لكلماته ونعمه، والدلالات عليه، فما بالك بما عدا ذلك؟!

وها نحن نرى أن الله تعالى أنزل لنا كتاباً لا يتجاوز عدد صفحاته مئات يسيرة، وهو هذا القرآن الكريم، وهو محدود الكلمات والآيات، والصفحات، وهو يقول: إنه يجمع ذلك كله، فهو لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلا به.. ولا يشبع منه علماؤه، كما في الحديث الشريف[2].. وقد قال تعالى: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾[3]..

---

(1) الآية 109 من سورة الكهف.

(2) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج1 ص55 والإحتجاج ج1 ص390 وشرح نهج البلاغة لابن ميثم ج1 ص320 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج1 ص288 ومستدرك سفينة البحار ج3 ص102 وبحار الأنوار ج2 ص284 وراجع ج53 ص79 وج74 ص134 وج89 ص17 والبرهان (تفسير) ج1 ص19 وج2 ص107 وتفسير العياشي ج1 ص2 وانوادر الراوندي ص22 و (ط دار الحديث) ص144 وكنز العمال (ط مؤسسة الرسالة) ج2 ص289 والكافي ج2 ص599 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج6 ص171 و (الإسلامية) ج4 ص828.

(3) الآية 21 من سورة يس.

واللافت: أنه يؤكد على أنه بلسان عربي مبين، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والأهم من هذا وذاك: أنه تعالى قد بيَّن مقاصده التي هي بحجم السماوات والأرض، والدنيا والآخـرة بلغة بسيطة وميَّسرة، وضعها البشر أنفسهم، لمعانيَ محسوسة لهم، مثل الشجر والحجر، والشمس والقمر، ونحو ذلك.. أو قريبة مما هو محسوس، وهو ما يدركه الإنسان بآثاره، مثل الحب، والبغض، والعدالة، والشجاعة، والكرم، وما إلى ذلك.

وهل تقاس هذه المحسوسات وما شابهها بالمعاني الراقية، والغزيرة، والتي هي بحجم الدنيا بأسرها، فضلاً عما سواها.. وتجمع كل شؤون الكون والحياة في الدنيا والآخرة لجميع بني الإنسان، على اختلاف طبقاتهم وحالاتهم، وفي مختلف مراحل وجودهم، في كل زمان؟!

وهذا الأمر بالذات ـ أعني سموّ وسعة هذه المعاني ـ هو الذي حتَّم أن تكون اللغة العربية هي اللغة القرآنية، لأنها هي القادرة على اختزان هذه المعاني العظيمة والهائلة.. وذلك بسبب تشعبات أنحاء دلالاتها على الخصوصيات والمعاني.. فمثلاً: لو فرضنا وجود كلمتين: (مسند، ومسند إليه).. فالمسند يكون اسماً، وقد يكون فعلاً، وقد يكون جملة اسمية تارة، وفعلية أخرى.

والاسم قد يكون ظاهراً أو مضمراً..

والظاهر قد يكون ضميراً..

والضمائر كثيرة ومتنوعة.. وقد يكون نكرة، أو معرفة..

مذكوراً، أو محذوفاً.. علماً، أو اسم موصول.. وهلم جرّا..

ونظير هذه الخصوصيات تجدها في المسند إليه، وإن اختلفت التسميات، والحالات، والاعتبارات..

وهذا يعطي: أن الأنواع والأحوال في كل من المسند والمسند إليه قد تتجاوز العشرات، وربما بلغت المئات..

فما بالك إذا انضم إلى ذلك: المفعول به، أو الحال، أو التمييز، أو غير ذلك، مما له من أحوال وخصوصيات مختلفة.. وتتواصل هذه الحالات وتزداد، بما تحمله من إشارات إلى معاني وخصوصيات، فتزداد تبعاً لها عناصر التراكيب الكلامية، وتختلف في خصوصياتها وحالاتها..

ومراجعة كتب المعاني والبيان تفتح آفاقاً واسعة أمام الفكر والتأمل في هذه المجالات.. وإن كان ما ذكروه قد بقي ناقصاً ومحدود الإمكانات والقدرات في هذا المجال أيضاً..

ولكن المهم: هو اكتشاف الباحث ذلك كله، وتلمّس حدود المعاني، وأحوالها، وخصوصياتها، من خلال هذه الوسائل وسواها، مما لم يزل بحاجة إلى بذل جهود كبيرة في اكتشافه وفي تطويره.

فعدم الاستفادة من هذه الآليات المتوفرة في استنباط الدلالات على المضمون، يزيد من احتمالات الوقوع في الخطأ، ويفسح المجال لإثارة الشبهات، لأن هذا هو أحد ثمرات القصور أو التقصير في هذا الأمر المهم والخطير..

وربما يجد الباحث في مطاوي هذا البحث بعض اللمحات لهذا النهج الذي نعتقد أنه النهج القويم، الذي لا بد من التزامه، من أجل حفظ وصيانة

الفكر والاعتقاد، وترسيخ حقائق الدين..

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين.

16 **شعبان** 1438 **هـ.ق.**

إيران ـ مدينة مشهد المشرفة

جعفر مرتضى العاملي

الآيات المباركات:

قال تعالى في سورة يونس الآية 98:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

وقال تعالى في سورة الأنبياء، الآيتان 87 ـ 88:

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال سبحانه في سورة الصافات، الآيات 139 ـ 148:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

وقال تعالى في سورة القلم، الآيات 48 ـ 50:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

صدق الله العلي العظيم، وسلام على المرسلين..

القسم الأول

يونس × في الحديث

الفصل الأول

يونس × في حديث غير الشيعة..

ذكرت قصة يونس في القرآن والحديث، والتاريخ بإجمال تارة، وبشيء من التفصيل أخرى..

وقد عرفنا: أن قصة يونس قد ذكرت في أربع سور، هي:

1 ـ سورة يونس: الآية 98.

2 ـ سورة الأنبياء: الآيات 87 ـ 88.

3 ـ سورة الصافات: الآيات: 139 ـ 148.

4 ـ سورة القلم: الآيات 48 ـ 50.

ونحن، وإن كان عمدة كلامنا في بيان ما نرمي إليه: هو شرح مفردات، وبيان دلالات هذه الآيات بالذات، إن شاء الله تعالى.. لكن ذلك لا يمنع من إلقاء نظرة على ما حملته لنا الروايات التي رواها الشيعة وغيرهم، ونتلمس الفرق بينهما، فنقول:

إننا نذكر في هذا الفصل، جانباً من الأحاديث التي رواها غير الشيعة حول هذا الموضوع، فنقول:

قالوا:

1 ـ إن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل.. قال قتادة: إنهم لما

فقدوا نبيهم قذف الله في قلوبهم التوبة، فلبسوا المسوح، وأخرجوا المواشي، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، فعجوا إلى الله أربعين صباحاً..

فلما عرف الله الصدق في قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى، كشف عنهم العذاب بعدما تدلى عليهم، ولم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل[1].

وعن ابن عباس: قدر ثلثي ميل[2].

2 ـ عن علي «عليه السلام» قال: إن الحذر لا يرد القدر، وإن الدعاء يرد القدر، وذلك في كتاب الله.. ﴿**إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ**﴾[3]»[4].

ونحوه عن ابن عباس[5].

3 ـ عن علي «عليه السلام» أيضاً قال: تيب على قوم يونس «عليه السلام» يوم عاشوراء[6].

---

(1) الدر المنثور ج3 ص317 عن ابن جرير، وابن المنذر، وابي الشيخ، وابن أبي حاتم، وعن عبد الرزاق وأحمد في الزهد. وفتح القدير ج2 ص475.

(2) الدر المنثور ج3 ص318 عن أحمد في الزهد وابن جرير ، وجامع البيان ج11 ص222 وفتح القدير ج2 ص475 وراجع: تفسير الآلوسي ج11 ص192.

(3) الآية 98 من سورة يونس.

(4) عن أبي حاتم واللالكائي في السنة، كما في الدر المنثور ج3 ص317 وتفسير القرآن العظيم (تفسير ابن أبي حاتم) ج6 ص1987.

(5) الدر المنثور ج3 ص317 عن ابن المنذر، وأبي الشيخ.، وأحمد، وابن جرير.

(6) الدر المنثور ج3 ص318 عن ابن أبي حاتم، وتفسير القرآن العظيم (تفسير ابن أبي حاتم) ج6 ص1988.

وسيأتي لنا كلام حول هذا الأمر، إن شاء الله تعالى..

4 ـ عن ابن عباس في قوله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ يقول: غضب على قومه، ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ يقول: أن لن نقضي عليه عقوبة ولا بلاء فيما صنع بقومه في غضبه عليهم وفراره.

قال: وعقوبته أخذ النون إياه[1].

5 ـ عن عمرو بن قيس قال: كانت تكون أنبياء جميعاً، يكون عليهم واحد.

فكان يوحى إلى ذلك النبي: أرسل فلاناً إلى بني فلان، فقال الله: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾.

قال: مغاضباً ذلك النبي[2].

6 ـ عن سالم بن أبي الجعد: أوحى الله تعالى إلى الحوت: أن لا تضر له لحماً، ولا عظماً، ثم ابتلع الحوت حوت آخر، قال: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ قال: ظلمة الحوت، ثم حوت، ثم ظلمة البحر[3].

7 ـ وفي بعض الروايات عن سعيد بن جبير: ومطرت السماء دماً[4].

---

(1) الدر المنثور ج4 ص332 ـ 333 عن ابن جرير، والبيهقي في الأسماء والصفات. وراجع: ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد عن مجاهد وعن الضحاك، وجامع البيان ج17 ص103 وفتح القدير ج3 ص424.

(2) الدر المنثور ج4 ص333 عن ابن أبي حاتم، وتفسير القرآن العظيم (تفسير ابن أبي حاتم) ج8 ص2463.

(3) الدر المنثور ج4 ص333 عن ابن أبي حاتم، وابن جرير، وجامع البيان ج17 ص106.

(4) الدر المنثور ج3 ص318 عن أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وعبد بن

8 ـ عن ابن عباس: أن معاوية قال له يوماً: إني قد ضربتني أمواج القرآن البارحة في آيتين لم أعرف تأويلهما، ففزعت إليك.

قال: وما هما؟!

قال: قول الله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[1]. وأنه يفوته إن أراده.

وقول الله: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾[2]. كيف هذا؟! يظنون أنه قد كذبهم ما وعدهم؟!

فقال ابن عباس: أما يونس، فظن أن لن تبلغ خطيئته أن يقدر الله عليه فيها العقاب، ولم يشك أن الله إن أراده قدر عليه.

وأما الآية الأخرى، فإن الرسل استيأسوا من إيمان قومهم، وظنوا أن من عصاهم لرضا في العلانية قد كذبهم في السر، وذلك لطول البلاء عليهم، ولم تستيئس الرسل من نصر الله، ولم يظنوا أنهم كذبهم ما وعدهم.

فقال معاوية: فرَّجت عني يا ابن عباس، فرَّج الله عنك[3].

9 ـ وفي نص آخر عن ابن عباس: أن الله تعالى لما صرف العذاب عن قوم يونس، غضب يونس، فقال: كُذِّبت، فهو قوله: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾. وذهب إلى البحر، فركب السفينة، فلما واجهت الحوت طلب منهم يونس

حميد، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وفتح القدير ج2 ص475.

(1) الآية 87 من سورة الأنبياء.

(2) الآية 110 من سورة يوسف.

(3) الدر المنثور ج4 ص333 عن الموفقيات. وراجع: تفسير الرازي ج22 ص215.

أن يطرحوه في البحر، فأبوا. فطلب منهم إجراء القرعة، فوقعت القرعة عليه.

فأوحى الله تعالى إلى سمكة يقال لها «النجم»: أن شقي البحار حتى تأخذي يونس، فليس يونس لك رزقاً، ولكن بطنك له سجن، فلا تخدشي له جلداً، ولا تكسري له عظماً..

فجاءت حتى استقبلت السفينة، فقارعوه الثالثة، فوقعت عليه القرعة، فاقتحم الماء، فالتقمته السمكة.. فشقت به البحار حتى انتهت به إلى البحر الأخضر»[1].

ونقول:

أولاً: تحدثت الرواية عن أن يونس «عليه السلام» يرى أن الله تعالى قد أظهره بمظهر الكاذب، وجعل قومه يسخرون منه.. إن نسبة ذلك إلى الله من أعظم الجرائم والعظائم..

ثانياً: نحن نشك في أن يكون يونس «عليه السلام» قد طلب من أصحاب السفينة: أن يطرحوه في البحر، أو أنه ألقى بنفسه فيه باختياره، فإنه لا يحق للإنسان أن يعرِّض نفسه لخطر الموت، بل يجب عليه أن يدفع الخطر عن نفسه ما أمكن.. ودعوى: أن يونس «عليه السلام» قد طالبهم بالقرعة، وكأنه يقول لهم: الحوت لا يريد سواي، والقرعة تدلهم على ذلك.. ما هو إلا رجم بالغيب، ولا يبرر إقدامه على موت يمكن أن يدفعه عن نفسه، ولا ينحصر به..

10 ـ عن ابن عباس: أن الحوت ذهب بيونس حتى أوقفه بالأرض

---

(1) الدر المنثور ج4 ص333 و 334 عن ابن أبي حاتم، وتفسير القرآن العظيم (تفسير ابن أبي حاتم) ج8 ص2463.

السابعة، فسمع تسبيح الأرض فهيجه على التسبيح، فقال: ﴿**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[1].

فأخرجته حتى ألقته على الأرض، بلا شعر، ولا ظفر.. مثل الصبي المنفوس، فأُنبِتت عليه شجرة تظله، ويأكل من تحتها من حشرات الأرض.

فبينا هو نائم تحتها، إذ تساقط ورقها قد يبست، فشكا ذلك إلى ربه، فقال: تحزن على شجرة يبست، ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون يعذبون[2].

ونقول:

هل يجوز أكل الحشرات، ولاسيما من نبي عالم بالشريعة.. يريد الله تعالى له: أن يبقى على درجة عالية من النزاهة عن مثل هذه الأمور؟!

يضاف إلى ذلك: أن بعض الروايات يصرِّح: بأنه كان يأكل من شجرة اليقطين التي هي القرع، وفي بعضها غير ذلك أيضاً.

11 ـ عن علي «عليه السلام» مرفوعاً: ليس لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى، سبح الله في الظلمات، ونحو ذلك عن ابن عباس وغيره[3].

---

(1) الآية 87 من سورة الأنبياء.

(2) الدر المنثور ج4 ص334 عن ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، والمصنف لابن أبي شيبة ج8 ص291.

(3) راجع: الدر المنثور ج4 ص334 عن مصنف ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر. وراجع: المصنف للصنعاني، والبخاري، ومسلم، وأبا داود، والنسائي، والحاكم، وصححه، وراجع: المصنف لابن أبي شيبة ج7 ص458 وكنز العمال (ط مؤسسة الرسالة) ج12 ص476

ونقول:

إن كان هذا الكلام يشمل جميع الأنبياء، حتى إبراهيم «عليه السلام»، ونبينا «صلى الله عليه وآله»، وعلي والأئمة «عليهم السلام».. فنحن نشك، بل نرفض أن يكون قد صدر عن علي «عليه السلام»، إذ لا ريب في أفضلية هؤلاء وغيرهم على يونس «عليه السلام»..

12 ـ وروى أبو هريرة عن النبي «صلى الله عليه وآله»: أن الحوت لما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً، فقال في نفسه: ما هذا؟!

فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت: أن هذا تسبيح دواب الأرض، فسبح وهو في بطن الحوت، فسمع الملائكة «عليهم السلام» تسبيحه، فقالوا: ربنا إنَّا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غربة.

قال: ذاك عبدي يونس، عصاني، فحبسته في بطن الحوت في البحر.

قالوا: العبد الصالح، الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم عمل صالح؟!

قال: نعم.

فشفعوا له عند ذلك.. فأمره، فقذفه في الساحل ـ كما قال الله ـ وهو سقيم[1].

ومسند ابن الجعد ص26 وفتح الباري ج6 ص324.

(1) راجع: الدر المنثور ج5 ص287 ـ 289 وراجع: تاريخ الأمم والملوك (ط الأعلمي) ج1 ص461 ومجمع الزوائد ج7 ص98 وجامع البيان ج17 ص107 والكشف والبيان (تفسير الثعلبي) ج6 ص303 والجامع لأحكام القرآن ج15

13 ـ عن ابن مسعود: أنه لما كفَّ الله العذاب عن قوم يونس، وغدا يونس «عليه السلام» ينتظر العذاب، فلم يرَ شيئاً، وكان من كذب ولم يكن له بينة قتل، فانطلق مغاضباً، حتى أتى قوماً في سفينة[1].

14 ـ عن قتادة: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾: أي مسيء فيما صنع. وكذا عن ابن عباس: أنه المسيء والمذنب. واستشهد بقول أمية بن أبي الصلت:

مـن اللاّمـاتِ لَسـتُ لهـا بأهـلٍ ولكـنّ المُـسيءَ هـوَ المَلـيمُ

وعن قتادة: المليم: المذنب[2].

ونقول:

إن كانت كلمة «المَليمُ» الواردة في شعر ابن الصلت بفتح الميم، فهي لا تصلح لتفسير الآية الكريمة، لأن الميم الأولى فيها مضمومة، لا مفتوحة..

15 ـ وفي بعض الروايات: أن الحوت التقمه ضحى، ولفظه عشية، وقيل: لبث أربعين يوماً، وقيل: سبعة أيام[3].

ص123 وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ج3 ص201 والكامل في التاريخ ج1 ص361 والبداية والنهاية ج1 ص270 وقصص الأنبياء لابن كثير ج1 ص392.

(1) راجع: الدر المنثور ج5 ص288 والمصنف لابن أبي شيبة ج7 ص459 وتفسير القرآن العظيم (تفسير ابن أبي حاتم) ج10 ص3227.

(2) الدر المنثور ج5 ص288 عن أحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير والبيهقي. وراجع: ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري.

(3) راجع: الدر المنثور ج5 ص289 و 290 عن مصادر كثيرة، وفتح الباري ج6 ص325 والإتقان للسيوطي ج2 ص369 وتفسير الآلوسي ج17 ص85 وحياة

16 ـ وعن حميد بن هلال. قال: «فكان يونس في بطن الحوت حتى رق العظم وذهب اللحم والبشر والشعر، وكان سقيماً، فدعا بما دعا به، فنبذ بالعراء وهو سقيم، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين، فكان فيها غداه، حتى اشتد العظم، ونبت اللحم والشعر والبشر، فعاد كما كان»[1].

ونقول:

من الواضح: أن رقة العظم، وذهاب اللحم وغيره يحتاج إلى وقت طويل، والرواية التالية تدل على أن بطن الحوت يجب أن يحفظ يونس «عليه السلام»، لا أن يؤثر فيه إلى هذا الحد..

17 ـ عن شهر بن حوشب: أن يونس حين تدلى في البحر «جاء الحوت يبصبص بذنبه، فنودي الحوت: إنَّا لم نجعل يونس لك رزقاً، إنما جعلناك له حرزاً ومسجداً»[2].

18 ـ عن عكرمة: أن يونس قال في بطن الحوت:

«إلهي من البيوت أخرجتني، ومن رؤوس الجبال أنزلتني، وفي البلاد سيرتني، وفي البحر قذفتني، وفي بطن الحوت سجنتني، فما تعرف مني عملاً صالحاً تروِّح به عني؟!

الحيوان الكبرى ج2 ص507.

(1) الدر المنثور ج5 ص289 عن أحمد في الزهد، وأبي الشيخ، وعبد بن حميد.

(2) الدر المنثور ج5 ص289 و290 عن عبد بن حميد، وابن جرير وجامع البيان ج23 ص125 والكشف والبيان (تفسير الثعلبي) ج6 ص303 و 304 والجامع لأحكام القرآن ج15 ص121 وتاريخ الأمم والملوك ج1 ص458.

قالت الملائكة: ربنا صوت معروف من مكان غربة..»[1].

19 ـ لكن رواية عن سعيد بن جبير يقول فيها: «لما بعث الله يونس «عليه السلام» إلى قومه يدعوهم إلى الله وعبادته، وأن يتركوا ما هم فيه، أتاهم فدعاهم، فأبوا عليه، فرجع إلى ربه، فقال: ربِّ، إن قومي قد أبوا عليَّ وكذبوني.

قال: فارجع إليهم، فإن هم آمنوا وصدَّقوا.. وإلا فأخبرهم أن العذاب مصبحهم غدوة.

فأتاهم، فدعاهم، فأبوا عليه..

قال: فإن العذاب مصبحكم غدوة..

إلى أن تقول الرواية: إن يونس لما رأى أنه لم يصبهم شيء من العذاب، قال: لا والله لا آتيهم وقد جربوا علي كذبة، فخرج، فذهب مغاضباً لربه»[2].

ونقول:

كأنَّ هذه الرواية تريد أن تقول: إن يونس «عليه السلام» لم يفعل إلا ما أمره به ربه، فإذا كان قد أمره بأن يخبر قومه بأنهم سوف يعذبون، فأخبرهم بذلك.. ثم ظهر أنه تعالى لم يعذبهم.. فمن الطبيعي: أن يغضب من ربه، لأنه هو الذي تسبب بظهور يونس بمظهر الكاذب..

وهذا الكلام غير سديد، ولا رشيد، بل هو تكفير ليونس «عليه السلام».

---

(1) الدر المنثور ج5 ص290 عن عبد بن حميد، وابن المنذر. وراجع: تفسير السمعاني ج4 ص415.

(2) الدر المنثور ج5 ص290 عن عبد بن حميد.

وسيأتي أن المراد: أن يونس «عليه السلام» قد غضب من قومه انتصاراً منه لربه..

بل الرواية حين تقول: إن الله تعالى قد أظهر يونس «عليه السلام» بمظهر الكاذب، وإنه جعل قومه يسخرون منه.. وهذا أمر في غاية القبح، ولا يصدر من نبي، بل لا يصدر من أي عاقل على الإطلاق..

20 ـ وقد فسروا الزيادة في قوله تعالى: ﴿**مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ**﴾ بسبعين ألفاً، كما عن سعيد بن جبير، ونوف، وعن أُبي بن كعب.. يزيدون عشرين ألفاً.

وعن ابن عباس: يزيدون ثلاثين ألفاً.

وفي نص آخر عنه: بضعة وثلاثين ألفاً.

وفي نص آخر عنه: يزيدون بضعة وأربعين ألفاً[1].

21 ـ عن الحسن بن علي «عليهما السلام» رفعه: كلوا اليقطين، فلو علم الله عز وجل شجرة أخف منها لأنبتها على يونس «عليه السلام» الخ..[2].

22 ـ عن ابن عباس قال: «إنما كانت رسالة يونس «عليه السلام» بعد

---

(1) الدر المنثور ج5 ص291 عن ابن جرير، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والترمذي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والفريابي، وابن أبي الدنيا في كتاب العقوبات، وسعيد بن منصور، وتفسير القرآن العظيم (تفسير ابن أبي حاتم) ج10 ص3230 و 3231 وفتح القدير ج4 ص412.

(2) الدر المنثور ج5 ص291 عن الديلمي، ومستدرك الوسائل ج16 ص426 ومكارم الأخلاق للطبرسي ص177 وبحار الأنوار ج63 ص228 وراجع: كنز العمال (ط مؤسسة الرسالة) ج15 ص280.

ما نبذه الحوت ثم تلا: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾»[1].

23 ـ وفسر مجاهد شجرة اليقطين: بأنها شجرة غير ذات أصل، من الدباء وغيره[2].

وعن سعيد بن جبير وابن عباس: أنها كل شيء نبت ثم يموت من عامه[3].

وعن ابن عباس في نص آخر: ما بال البطيخ من القرع، هو كل شيء يذهب على وجه الأرض[4].

وعن سعيد بن جبير: كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين، والذي يكون على وجه الأرض من البطيخ والقثاء[5].

---

(1) الدر المنثور ج5 ص291 عن أحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه، ومعاني القرآن للنحاس ج6 ص63 وفتح القدير ج4 ص412.

(2) الدر المنثور ج5 ص291 عن عبد بن حميد، وابن أبي شيبة، وجامع البيان ج23 ص122 وراجع: تغليق التعليق ج4 ص28.

(3) الدر المنثور ج5 ص291 عن عبد بن حميد، وجامع البيان ج23 ص122 والكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثعلبي) ج8 ص171 والمحرر الوجيز ج4 ص487 والجامع لأحكام القرآن ج15 ص129 وجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي) ج5 ص49 وفتح القدير ج4 ص411 وتفسير الآلوسي ج23 ص146 ولسان العرب ج13 ص345 وتاج العروس ج18 ص457.

(4) الدر المنثور ج5 ص291 عن ابن أبي شيبة، وابن المنذر.

(5) الدر المنثور ج5 ص291 عن عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وتفسير القرآن العظيم (تفسير ابن أبي حاتم) ج10 ص3230 وتفسير الآلوسي ج23

وعنه أيضاً: أنه سئل عن اليقطين: أهو القرع؟!

قال: لا، ولكنها شجرة سماها الله اليقطين أظلته[1].

24 ـ عن ابن جريج وقتادة في قوله: ﴿**وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ**﴾ قال: لا تعجل كما عجل، ولا تغاضب كما غاضب يونس[2].

25 ـ عن ابن عباس في قوله: ﴿**وَهُوَ مَكْظُومٌ**﴾، قال مغموم.. وفي قوله: ﴿**وَهُوَ مَذْمُومٌ**﴾ قال: مليم[3].

26 ـ قال البيضاوي، وتابعه الفيض الكاشاني: روي: أن يونس «عليه السلام» لما وعد قومه بالعذاب، خرج من بينهم قبل أن يأمره اللهُ به، فركب في السفينة، فوقفت، فقالوا: هنا عبد آبق..

فاقترعوا، فخرجت القرعة عليه، فرمى بنفسه في الماء، فالتقمه الحوت[4].

إلى هنا ينتهي ما أردنا عرضه على القارئ الكريم مما ورد في كتب غير الشيعة..

ص146 وتفسير العز بن عبد السلام ج3 ص67.

(1) الدر المنثور ج5 ص291 عن عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وتفسير القرآن العظيم (تفسير ابن أبي حاتم) ج10 ص3230 وتفسير الآلوسي ج23 ص146.

(2) الدر المنثور ج6 ص258 عن ابن المنذر، وعبد الرزاق، وأحمد في الزهد، وتفسير مقاتل بن سليمان ج3 ص391.

(3) الدر المنثور ج6 ص258 عن ابن المنذر، وابن أبي حاتم وجامع البيان ج29 ص55.

(4) الوافي للفيض الكاشاني ج16 ص941. وج26 ص93 وأنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي) ج5 ص18.

الفصل الثاني

يونس × في روايات الشيعة..

نصوص رواها الشيعة:

من الروايات التي وردت في كتب الشيعة الإمامية، نذكر ما يلي:

1 ـ عن الإمام الصادق «عليه السلام» أنه قال: أي قضية أعدل من القرعة، إذا فُوِّض الأمر إلى الله؟!

أليس اللهُ تعالى يقول: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾؟![1]»[2].

2 ـ حديث العباس بن معروف، عن سعدان بن مسلم، عن صباح المزني، عن الحرث بن حصيرة، عن حبة العرني، قال:

---

(1) الآية 141 من سورة الصافات.

(2) الوافي للفيض الكاشاني ج16 ص940 والمحاسن للبرقي ج2 ص603 ومن لا يحضره الفقيه ج3 ص92 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج27 ص261 و 262 ووسائل الشيعة (الإسلامية) ج18 ص190 و 191 ومستدرك الوسائل ج17 ص374 وفتح الأبواب ص271 ومشكاة الأنوار للطبرسي ص571 والفصول المهمة للحر العاملي ج1 ص694 وبحار الأنوار ج101 ص291 و 325 ومستدرك سفينة البحار ج5 ص313 وج8 ص506 وهداية الأمة ج8 ص407 ومجمع البيان (تفسير) ج2 ص292 والبرهان (تفسير) ج4 ص631 ونور الثقلين (تفسير) ج4 ص434 وكنز الدقائق (تفسير) ج11 ص181.

قال أمير المؤمنين «عليه السلام»: «إن الله عرض ولايتي على أهل السماوات وعلى أهل الأرض، أقرَّ بها من أقرَّ، وأنكرها من أنكر.. أنكرها يونس، فحبسه الله في بطن الحوت حتى أقر بها»(1).

سيأتي بيان: أن هذه الرواية لا تتحدث عن زمان بعثة يونس «عليه السلام»، بل تتحدث عن عالم الذر، ولا يرد عليها أي إشكال..

3 ـ علي بن أحمد بن محمد رضي الله عنه، قال: حدثنا محمد بن أبي عبد الله الكوفي، عن موسى بن عمران النخعي، عن عمه الحسين بن يزيد النوفلي، عن علي بن سالم، عن أبيه، عن أبي بصير، قال:

قلت لأبي عبد الله «عليه السلام»: لأي علة صرف الله عز وجل العذاب عن قوم يونس وقد أظلهم، ولم يفعل كذلك بغيرهم من الأمم.

فقال: لأنه كان في علم الله عز وجل: أنه سيصرفه عنهم لتوبتهم.. وإنما ترك إخبار يونس بذلك، لأنه عز وجل أراد أن يفرِّغه لعبادته في بطن الحوت، فيستوجب بذلك ثوابه وكرامته(2).

4 ـ عن علي بن إبراهيم، قال: حدثني أبي، عن ابن أبي عمير، عن جميل،

---

(1) بصائر الدرجات ص95 ومدينة المعاجز ج2 ص35 وج4 ص301 وبحار الأنوار ج14 ص391 وج26 ص282 والبرهان (تفسير) ج4 ص631 ونور الثقلين (تفسير) ج4 ص433 وكنز الدقائق (تفسير) ج11 ص180.

(2) علل الشرايع ج1 ص77 والفصول المهمة للحر العاملي ج3 ص410 وبحار الأنوار ج14 ص386 والبرهان (تفسير) ج3 ص56 و57 ونور الثقلين (تفسير) ج2 ص328 وكنز الدقائق (تفسير) ج6 ص107.

قال:

قال لي أبو عبد الله «عليه السلام»: «ما رد الله العذاب إلا عن قوم يونس، وكان يونس يدعوهم إلى الإسلام فيأبون ذلك، فهمَّ أن يدعو عليهم، وكان فيهم رجلان: عابد، وعالم، وكان اسم أحدهما: «تنوخا»، والآخر اسمه: «روبيل»، فكان العابد يشير على يونس بالدعاء عليهم، وكان العالم ينهاه، ويقول: لا تدع عليهم، فإن الله يستجيب لك، ولا يحب هلاك عباده.

فقبل قول العابد، ولم يقبل قول العالم.. فدعا عليهم، فأوحى الله عز وجل إليه: يأتيهم العذاب في سنة كذا وكذا، في شهر كذا وكذا، في يوم كذا وكذا.

فلما قرب الوقت خرج يونس من بينهم مع العابد وبقي العالم فيها، فلما كان في ذلك اليوم نزل العذاب، فقال العالم لهم: يا قوم، افزعوا إلى الله، فلعله يرحمكم، ويرد العذاب عنكم.

فقالوا: كيف نصنع؟!

قال: اجتمعوا واخرجوا إلى المفازة، وفرِّقوا بين النساء والأولاد، وبين الإبل وأولادها، وبين البقر وأولادها، وبين الغنم وأولادها، ثم ابكوا وادعوا.

فذهبوا وفعلوا ذلك، وضجوا وبكوا، فرحمهم الله، وصرف عنهم العذاب، وفرق العذاب على الجبال، وقد كان نزل، وقرب منهم.

فأقبل يونس لينظر كيف أهلكهم الله، فرأى الزارعين يزرعون في أرضهم، قال لهم: ما فعل قوم يونس؟!

فقالوا له، ولم يعرفوه: إن يونس دعا عليهم، فاستجاب الله له، ونزل العذاب عليهم، فاجتمعوا وبكوا، ودعوا، فرحمهم الله، وصرف ذلك عنهم،

وفرق العذاب على الجبال.. فهم إذن، يطلبون يونس ليؤمنوا به.

فغضب يونس، ومرَّ على وجهه مغاضباً، كما حكى الله تعالى، حتى انتهى إلى ساحل البحر، فإذا سفينة قد شحنت، وأرادوا أن يدفعوها..

فسألهم يونس أن يحملوه، فحملوه.

فلما توسطوا البحر بعث الله حوتاً عظيماً، فحبس عليهم السفينة من قدامها، فنظر إليه يونس، ففزع منه، وصار إلى مؤخر السفينة، فدار إليه الحوت وفتح فاه..

فخرج أهل السفينة، فقالوا: فينا عاص.

فتساهموا، فخرج سهم يونس وهو قول الله عز وجل ﴿**فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ**﴾[1]. فأخرجوه، فالقوه في البحر، فالتقمه الحوت، ومر به في الماء.

وقد سأل بعض اليهود أمير المؤمنين «عليه السلام» عن سجن طاف أقطار الأرض بصاحبه، فقال: يا يهودي، أما السجن الذي طاف أقطار الأرض بصاحبه، فإنه الحوت الذي حبس يونس في بطنه.

فدخل في بحر القلزم، ثم خرج إلى بحر مصر، ثم دخل في بحر طبرستان، ثم خرج في دجلة الغورا، ثم مرت به تحت الأرض حتى لحقت بقارون.

وكان قارون هلك في أيام موسى، ووكل الله به ملكاً يدخله في الأرض كل يوم قامة رجل.

---

(1) الآية 141 من سورة الصافات.

وكان يونس في بطن الحوت يسبح الله ويستغفره، فسمع قارون صوته، فقال للملك الموكل به: أنظرني، فإني أسمع كلام آدمي.

فأوحى الله إلى الملك الموكل به: أنظره.

فأنظره، ثم قال قارون: من أنت؟!

قال يونس: أنا المذنب الخاطئ، يونس بن متى.

قال: فما فعل الشديد الغضب لله موسى بن عمران؟!

قال: هيهات! هلك.

قال: فما فعل الرؤوف الرحيم على قومه هارون بن عمران؟!

قال: هلك.

قال: فما فعلت كلثم بنت عمران التي كانت سميت لي؟!

قال: هيهات! ما بقي من آل عمران أحد.

فقال قارون: وا أسفا على آل عمران!

فشكر الله له ذلك، فأمر الله الملك الموكل به أن يرفع عنه العذاب أيام الدنيا.

فرفع عنه، فلما رأى يونس ذلك، ﴿**فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[1].

فاستجاب الله له، وأمر الحوت أن تلفظه..

فلفظته على ساحل البحر، وقد ذهب جلده ولحمه، وأنبت الله عليه شجرة

---

(1) الآية 87 من سورة الأنبياء.

من يقطين، وهي الدباء.. فأظلته من الشمس، فشكر.

ثم أمر الله الشجرة، فتنحت عنه، ووقع الشمس عليه، فجزع، فأوحى الله إليه: يا يونس، لِمَ لَمْ ترحم مائة ألف أو يزيدون، وأنت تجزع من ألم ساعة.

فقال: يا رب عفوك عفوك.

فرد الله عليه بدنه، ورجع إلى قومه، وآمنوا به، وهو قوله: ﴿**فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**﴾[1].

وقالوا: مكث يونس في بطن الحوت تسع ساعات[2].

ونلاحظ: أن الرواية المتقدمة تقول: إن يونس «عليه السلام» لما سمع أن الله رفع العذاب عن قومه غضب.. مع أن مخبره ذكر له أن قومه قد تابوا، وأنهم يطلبونه ليؤمنوا به..

فكيف يغضب نبي من نجاة أمة من الناس من عذاب الاستئصال؟!

ولماذا لا يفرح بتوبتهم وبإيمانهم؟!

ولماذا لا يسارع إليهم، ليؤمنوا به؟!

5 ـ قال القمي: وفى رواية أبي الجارود عن أبي جعفر «عليه السلام» قال: لبث يونس في بطن الحوت ثلاثة أيام، ونادى في الظلمات: ظلمة بطن الحوت،

---

(1) الآية 98 من سورة يونس.

(2) تفسير القمي ج1 ص317 ـ 318 والبرهان (تفسير) ج3 ص57 ـ 59 وج4 ص628 وكنز الدقائق (تفسير) ج6 ص108.

وظلمة الليل، وظلمة البحر ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

فاستجاب الله له، فأخرجه الحوت إلى الساحل، ثم قذفه، فألقاه بالساحل، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، وهو القرع، فكان يمصه، ويستظل به وبورقه، وكان تساقط شعره ورق جلده.

وكان يونس يسبح ويذكر الله الليل والنهار، فلما أن قوي واشتد، بعث الله دودة، فأكلت أسفل القرع، فذبلت القرعة، ثم يبست، فشق ذلك على يونس، فظل حزيناً، فأوحى الله إليه: ما لك حزيناً يا يونس؟!

قال: يا رب، هذه الشجرة التي كانت تنفعني، سلطت عليها دودة فيبست.

قال: يا يونس، أحزنت لشجرة لم تزرعها ولم تسقها، ولم تعيَ بها، أن يبست حين استغنيت عنها، ولم تحزن لأهل نينوى، أكثر من مائة ألف أردت أن ينزل عليهم العذاب..

إن أهل نينوى قد آمنوا واتقوا، فارجع إليهم..

فانطلق يونس إلى قومه، فلما دنى من نينوى استحيى أن يدخل، فقال لراع لقيه: ائت أهل نينوى، فقل لهم: إن هذا يونس قد جاء.

قال الراعي: أتكذب، أما تستحيي، ويونس قد غرق في البحر وذهب.

قال له يونس: إن نطقت الشاة بأني يونس، قبلت مني؟!

فقال الراعي: بلى.

قال يونس: اللهم إن هذه الشاة تشهد لك أني يونس.

فنطقت الشاة: بأنه يونس.

فلما أتى الراعي قومه وأخبرهم، أخذوه وهموا بضربه، فقال: إن لي بينةً بما أقول.

قالوا: من يشهد؟!

قال: هذه الشاة تشهد.

فشهدت أنه صادق، وأن يونس قد رده الله إليهم..

فخرجوا يطلبونه، فوجدوه، فجاءوا به، وآمنوا وحَسُنَ إيمانهم، فمتعهم الله إلى حين، وهو الموت، وأجارهم من ذلك العذاب[1].

ونقول:

قد دلت هذه الرواية على أن يونس «عليه السلام» قد عرف برفع العذاب عن قومه بعد خروجه من بطن الحوت.. وهذا يخالف ما ذكرته الرواية المتقدمة، من أنه عرف بذلك قبل أن يبتلعه الحوت..

ويظهر من تلك الرواية: أن غضبه كان لأجل نجاة قومه، ورفع العذاب عنهم، كما قلنا..

6 ـ عن أبي عبيدة الحذاء، عن أبي جعفر «عليه السلام»، قال: سمعته يقول: «وجدنا في بعض كتب أمير المؤمنين «عليه السلام»، قال: حدثني رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن جبرئيل «عليه السلام» حدثه: أن يونس بن متى «عليه السلام» بعثه الله إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة، وكان رجلاً تعتريه

---

(1) تفسير القمي ج1 ص319 والبرهان (تفسير) ج3 ص58 و 59 ج4 ص630 ونور الثقلين (تفسير) ج2 ص329.

الحدة، وكان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم، عاجزاً عمَّا حُمِّل من ثقل حمل أوقار النبوة وأعلامها، وأنه تفسخ تحتها كما يتفسخ الجذع تحت حمله.

وأنه أقام فيهم يدعوهم إلى الإيمان بالله، والتصديق به، واتباعه ثلاثاً وثلاثين سنة، فلم يؤمن به ولم يتبعه من قومه إلا رجلان، اسم أحدهما: «روبيل»، واسم الآخر: «تنوخا».

وكان «روبيل» من أهل بيت العلم والنبوة والحكمة، وكان قديم الصحبة ليونس بن متى من قبل أن يبعثه الله بالنبوة.

وكان «تنوخا» رجلاً مستضعفاً عابداً زاهداً، منهمكاً في العبادة، وليس له علم ولا حكم، وكان روبيل صاحب غنم يرعاها ويتقوت منها، وكان تنوخا رجلاً حطاباً يحتطب على رأسه، ويأكل من كسبه..

وكان لروبيل منزلة من يونس غير منزلة تنوخا، لعلم روبيل وحكمته، وقديم صحبته.

فلما رأى يونس أن قومه لا يجيبونه ولا يؤمنون ضجر، وعرف من نفسه قله الصبر، فشكا ذلك إلى ربه، وكان فيما شكا أن قال: يا رب، إنك بعثتني إلى قومي، ولي ثلاثون سنة، فلبثت فيهم أدعوهم إلى الإيمان بك والتصديق برسالاتي، وأخوفهم عذابك ونقمتك ثلاثاً وثلاثين سنة، فكذبوني ولم يؤمنوا بي، وجحدوا نبوتي واستخفوا برسالاتي، وقد تواعدوني وخفت أن يقتلوني، فأنزل عليهم عذابك، فإنهم قوم لا يؤمنون».

قال: «فأوحى الله إلى يونس: أن فيهم الحمل والجنين والطفل، والشيخ الكبير، والمرأة الضعيفة، والمستضعف المهين، وأنا الحكم العدل، سبقت رحمتي

غضبي، لا أعذب الصغار بذنوب الكبار من قومك.

وهم ـ يا يونس ـ عبادي وخلقي وبريتي في بلادي وفي عيلتي، أحب أن أتأنَّاهم وأرفق بهم، وأنتظر توبتهم، وإنما بعثتك إلى قومك لتكون حيطاً عليهم، تعطف عليهم لسخاء الرحم الماسة منهم، وتتأناهم برأفة النبوة، وتصبر معهم بأحلام الرسالة، وتكون لهم كهيئة الطبيب المداوي، العالم بمداواة الداء، فخرقت بهم، ولم تستعمل قلوبهم بالرفق، ولم تسسهم بسياسة المرسلين.

ثم سألتني عن سوء نظرك العذاب لهم عند قلة الصبر منك، وعبدي نوح كان أصبر منك على قومه، وأحسن صحبة، وأشد تأنيا في الصبر عندي، وأبلغ في العذر، فغضبت له حين غضب لي، وأجبته حين دعاني.

فقال يونس: يا رب، إنما غضبت عليهم فيك، وإنما دعوت عليهم حين عصوك، فوعزتك لا أتعطف عليهم برأفة أبداً، ولا أنظر إليهم بنصيحة شفيق بعد كفرهم وتكذيبهم إياي، وجحدهم نبوتي، فأنزل عليهم عذابك، فإنهم لا يؤمنون أبداً.

فقال الله: يا يونس، إنهم مائة ألف أو يزيدون من خلقي.. يعمرون بلادي، ويلدون عبادي، ومحبتي أن أتأنَّاهم للذي سبق من علمي فيهم وفيك، وتقديري وتدبيري غير علمك وتقديرك، وأنت المرسل وأنا الرب الحكيم.

وعلمي فيهم ـ يا يونس ـ باطن في الغيب عندي لا يعلم ما منتهاه، وعلمك فيهم ظاهر لا باطن له.

يا يونس، قد أجبتك إلى ما سألت من إنزال العذاب عليهم، وما ذلك ـ يا يونس ـ بأوفر لحظك عندي، ولا أحمد لشأنك، وسيأتيهم العذاب في شوال

يوم الأربعاء، وسط الشهر بعد طلوع الشمس، فأعلمهم ذلك».

قال: «فسر ذلك يونس ولم يسؤه، ولم يدر ما عاقبته، فانطلق يونس إلى تنوخا العابد، فأخبره بما أوحى الله إليه من نزول العذاب على قومه في ذلك اليوم، وقال له: انطلق حتى أعلمهم بما أوحى الله إلي من نزول العذاب.

فقال تنوخا: فدعهم في غمرتهم ومعصيتهم حتى يعذبهم الله تعالى.

فقال له يونس: بل نلقى روبيل فنشاوره، فإنه رجل عالم حكيم من أهل بيت النبوة، فانطلقا إلى روبيل، فأخبره يونس بما أوحى الله إليه من نزول العذاب على قومه في شوال يوم الأربعاء في وسط الشهر بعد طلوع الشمس. فقال له: ما ترى؟! انطلق بنا حتى أعلمهم ذلك.

فقال له روبيل: ارجع إلى ربك رجعة نبي حكيم، ورسول كريم، وسله أن يصرف عنهم العذاب، فإنه غني عن عذابهم، وهو يحب الرفق بعباده، وما ذلك بأضر لك عنده ولا أسوأ لمنزلتك لديه.. ولعل قومك بعد ما سمعت ورأيت من كفرهم وجحودهم يؤمنون يوما، فصابرهم وتأنهم.

فقال له تنوخا: ويحك يا روبيل! ما أشرت على يونس وأمرته به بعد كفرهم بالله، وجحدهم لنبيه، وتكذيبهم إياه، وإخراجهم إياه من مساكنه، وما هموا به من رجمه !

فقال روبيل لتنوخا: اسكت، فانك رجل عابد، لا علم لك.

ثم أقبل على يونس، فقال: أرأيت يا يونس إذا أنزل الله العذاب على قومك، أينزله فيهلكهم جميعاً أو يهلك بعضا ويبقي بعضا؟!

فقال له يونس: بل يهلكهم الله جميعاً، وكذلك سألته، ما دخلتني لهم

رحمة تعطف فأراجع الله فيها وأسأله أن يصرف عنهم.

فقال له روبيل: أتدري ـ يا يونس ـ لعل الله إذا أنزل عليهم العذاب فأحسوا به أن يتوبوا إليه، ويستغفروا فيرحمهم، فإنه أرحم الراحمين، ويكشف عنهم العذاب من بعد ما أخبرتهم عن الله أنه ينزل عليهم العذاب يوم الأربعاء، فتكون بذلك عندهم كذابا.

فقال له تنوخا: ويحك ـ يا روبيل ـ لقد قلت عظيما، يخبرك النبي المرسل أن الله أوحى إليه بأن العذاب ينزل عليهم، فترد قول الله، وتشك فيه وفي قول رسوله؟ ! اذهب فقد حبط عملك.

فقال روبيل لتنوخا: لقد فشل رأيك.

ثم أقبل على يونس، فقال: إذا نزل الوحي والأمر من الله فيهم على ما أنزل عليك فيهم، من إنزال العذاب عليهم، وقوله الحق ـ أرأيت إذا كان ذلك ـ فهلك قومك كلهم، وخربت قريتهم، أليس يمحو الله اسمك من النبوة، وتبطل رسالتك، وتكون كبعض ضعفاء الناس، ويهلك على يديك مائة ألف أو يزيدون من الناس؟!

فأبى يونس أن يقبل وصيته، فانطلق ومعه تنوخا إلى قومه، فأخبرهم أن الله أوحى إليه أنه منزل العذاب عليكم يوم الأربعاء في شوال في وسط الشهر بعد طلوع الشمس.

فردوا عليه قوله، فكذبوه وأخرجوه من قريتهم إخراجاً عنيفاً.

فخرج يونس ومعه تنوخا من القرية، وتنحيا عنهم غير بعيد، وأقاما ينتظران العذاب.

وأقام روبيل مع قومه في قريتهم، حتى إذا دخل عليهم شوال صرخ روبيل بأعلى صوته في رأس الجبل إلى القوم: أنا روبيل، شفيق عليكم، رحيم بكم، هذا شوال قد دخل عليكم، وقد أخبركم يونس نبيكم ورسول ربكم أن الله أوحى إليه أن العذاب ينزل عليكم في شوال في وسط الشهر يوم الأربعاء بعد طلوع الشمس، ولن يخلف الله وعده رسول، فانظروا ما أنتم صانعون؟!

فأفزعهم كلامه، ووقع في قلوبهم تحقيق نزول العذاب، فأجفلوا نحو روبيل، وقالوا له: ماذا أنت مشير به علينا ـ يا روبيل ـ فإنك رجل عالم حكيم، لم نزل نعرفك بالرأفة علينا والرحمة لنا، وقد بلغنا ما أشرت به على يونس فينا، فمرنا بأمرك، وأشر علينا برأيك.

فقال لهم روبيل: فإني أرى لكم وأشير عليكم أن تنظروا وتعمدوا إذا طلع الفجر يوم الأربعاء في وسط الشهر:

أن تعزلوا الأطفال عن الأمهات في أسفل الجبل في طريق الأودية، وتوقفوا النساء وكل المواشي جميعا عن أطفالها في سفح الجبل، ويكون هذا كله قبل طلوع الشمس، فإذا رأيتم ريحاً صفراء أقبلت من المشرق، فعجوا عجيجاً، الكبير منكم والصغير بالصراخ والبكاء، والتضرع إلى الله، والتوبة إليه والاستغفار له، وارفعوا رؤوسكم إلى السماء، وقولوا: «ربنا ظلمنا أنفسنا، وكذبنا نبيك، وتبنا إليك من ذنوبنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين المعذبين، فاقبل توبتنا وارحمنا يا أرحم الراحمين».

ثم لا تملوا من البكاء والصراخ والتضرع إلى الله، والتوبة إليه حتى تتوارى الشمس بالحجاب، أو يكشف الله عنكم العذاب قبل ذلك.

فأجمع رأي القوم جميعاً على أن يفعلوا ما أشار به عليهم روبيل.

فلما كان يوم الأربعاء الذي توقعوا فيه العذاب، تنحى روبيل عن القرية حيث يسمع صراخهم، ويرى العذاب إذا نزل.

فلما طلع الفجر يوم الأربعاء فعل قوم يونس ما أمرهم روبيل به، فلما بزغت الشمس أقبلت ريح صفراء مظلمة مسرعة، لها صرير وحفيف وهدير، فلما رأوها عجوا جميعاً بالصراخ والبكاء والتضرع إلى الله، وتابوا إليه واستغفروه، وصرخت الأطفال بأصواتها تطلب أمهاتها، وعجت سخال البهائم تطلب الثدي، وعجت الأنعام تطلب الرعي.

فلم يزالوا بذلك، ويونس وتنوخا يسمعان ضجيجهم وصراخهم، ويدعوان الله بتغليظ العذاب عليهم، وروبيل في موضعه يسمع صراخهم وعجيجهم، ويرى ما نزل، وهو يدعو الله بكشف العذاب عنهم.

فلما أن زالت الشمس، وفتحت أبواب السماء، وسكن غضب الرب تعالى، رحمهم الرحمن فاستجاب دعاءهم، وقبل توبتهم، وأقالهم عثرتهم، وأوحى الله إلى إسرافيل «عليه السلام»: أن اهبط إلى قوم يونس، فإنهم قد عجوا إلي بالبكاء والتضرع، وتابوا إلي واستغفروني، فرحمتهم وتبت عليهم، وأنا الله التواب الرحيم.. أسرع إلى قبول توبة عبدي التائب من الذنوب.

وقد كان عبدي يونس ورسولي سألني نزول العذاب على قومه، وقد أنزلته عليهم، وأنا الله أحق من وفى بعهده، وقد أنزلته عليهم، ولم يكن اشترط يونس حين سألني أن انزل عليهم العذاب أن اهلكهم، فاهبط إليهم، فاصرف عنهم ما قد نزل بهم من عذابي.

فقال إسرافيل: يا رب، إن عذابك قد بلغ أكتافهم، وكاد أن يهلكهم، وما أراه إلا وقد نزل بساحتهم، فإلى أين أصرفه؟!

فقال الله: كلا إني قد أمرت ملائكتي أن يصرفوه، ولا ينزلوه عليهم حتى يأتيهم أمري فيهم وعزيمتي، فاهبط ـ يا إسرافيل ـ عليهم، واصرفه عنهم، واضرب به إلى الجبال بناحية مفايض العيون ومجاري السيول في الجبال العاتية، المستطيلة على الجبال، فأذلها به ولينها حتى تصير ملتئمة حديداً جامداً.

فهبط إسرافيل عليهم، فنشر أجنحته فاستاق بها ذلك العذاب، حتى ضرب بها تلك الجبال التي أوحى الله إليه أن يصرفه إليها.

قال أبو جعفر «عليه السلام»: وهي الجبال التي بناحية الموصل اليوم، فصارت حديداً إلى يوم القيامة.

فلما رأى قوم يونس أن العذاب قد صُرف عنهم، هبطوا إلى منازلهم من رؤوس الجبال، وضموا إليهم نساءهم وأولادهم وأموالهم، وحمدوا الله على ما صُرف عنهم.

وأصبح يونس وتنوخا يوم الخميس في موضعهما الذي كانا فيه، لا يشكان أن العذاب قد نزل بهم وأهلكهم جميعاً، لما خفيت أصواتهم عنهما، فأقبلا ناحية القرية يوم الخميس مع طلوع الشمس، ينظران إلى ما صار إليه القوم، فلما دنوا من القوم واستقبلهم الحطابون والحمارة والرعاة بأغنامهم، ونظروا إلى أهل القرية مطمئنين، قال يونس لتنوخا: يا تنوخا، كذبني الوحي، وكذبت وعدي لقومي، لا وعزة ربي لا يرون لي وجهاً أبداً بعد ما كذَّبني الوحي.

فانطلق يونس هارباً على وجهه، مغاضباً لربه، ناحية بحر أيلة، متنكراً،

فراراً من أن يراه أحد من قومه، فيقول له: يا كذاب، فلذلك قال الله: ﴿**وذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْه**﴾ الآية.

ورجع تنوخا إلى القرية، فلقي روبيل، فقال له: يا تنوخا، أي الرأيين كان أصوب وأحق أن يتبع: رأيي، أو رأيك؟!

فقال له تنوخا: بل رأيك كان أصوب، ولقد كنت أشرت برأي الحكماء والعلماء.

وقال له تنوخا: أما إني لم أزل أرى أني أفضل منك لزهدي وفضل عبادتي، حتى استبان فضلك لفضل علمك، وما أعطاك الله ربك من الحكمة مع التقوى أفضل من الزهد والعبادة بلا علم..

فاصطحبا، فلم يزالا مقيمين مع قومهما، ومضى يونس على وجهه مغاضباً لربه، فكان من قصته ما أخبر الله به في كتابه إلى قوله: ﴿**فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ**﴾».

قال أبو عبيدة: قلت لأبي جعفر «عليه السلام»: كم كان غاب يونس عن قومه حتى رجع إليهم بالنبوة والرسالة فآمنوا به وصدقوه؟!

قال: «أربعة أسابيع: سبعاً منها في ذهابه إلى البحر، وسبعاً منها في رجوعه إلى قومه».

فقلت له: وما هذه الأسابيع شهور، أو أيام، أو ساعات؟!

فقال: «يا أبا عبيدة، إن العذاب أتاهم يوم الأربعاء، في النصف من شوال، وصُرف عنهم من يومهم ذلك، فانطلق يونس مغاضباً، فمضى يوم الخميس، سبعة أيام في مسيره إلى البحر، وسبعة أيام في بطن الحوت، وسبعة

أيام تحت الشجرة بالعراء، وسبعة أيام في رجوعه إلى قومه، فكان ذهابه ورجوعه مسير ثمانية وعشرين يوماً، ثم أتاهم فآمنوا به وصدقوه، واتبعوه، فلذلك قال الله: ﴿**فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ**﴾»[1].

7 ـ عن الثمالي، عن أبي جعفر «عليه السلام»، قال: «إن يونس لما آذاه قومه دعا الله عليهم، فأصبحوا أول يوم ووجوههم صفر، وأصبحوا اليوم الثاني ووجوههم سود».

قال: «وكان الله واعدهم أن يأتيهم العذاب، فأتاهم العذاب حتى نالوه برماحهم، ففرقوا بين النساء وأولادهن والبقر وأولادها، ولبسوا المسوح والصوف، ووضعوا الحبال في أعناقهم، والرماد على رؤوسهم، وصاحوا صيحة واحدة إلى ربهم، وقالوا آمنا بإله يونس».

قال: «فصرف الله عنهم العذاب إلى جبال آمد ـ قال ـ وأصبح يونس وهو يظن أنهم هلكوا، فوجدهم في عافية، فغضب[2] وخرج كما قال الله: ﴿**مُغاضِبًا**﴾

---

(1) تفسير العياشي ج2 ص129 ـ 135 والبرهان (تفسير) ج3 ص60 ـ 65 وبحار الأنوار ج14 ص392 ـ 399 ونور الثقلين (تفسير) ج2 ص321 ـ 327 وكنز الدقائق (تفسير) ج6 ص100 ـ 106.

(2) لم تصرح الرواية بسبب غضب يونس «عليه السلام»، فيحتمل أن يكون سبب غضبه: هو أنه لا يريد استمرار التمرد على الله الذي عرفه فيهم، فزاد غضبه عليهم لذلك.. وإن كان لم يُعرف سبب تأخير نزول العذاب.. فإن الله حكيم عليم.
على أن هذه الرواية تخالف الرواية التي تقول: إنه ذهب مغاضباً قبل معرفته بارتفاع العذاب عن قومه..

حتى ركب سفينة فيها رجلان، فاضطربت السفينة، فقال الملاح: يا قوم، في سفينتي مطلوب.

فقال يونس: أنا هو، وقام ليلقي نفسه، فأبصر السمكة وقد فتحت فاها، فهابها، وتعلق به الرجلان، وقالا له: أنت وحدك ونحن رجلان نتساهم.

فتساهموا، فوقعت السهام عليه، فجرت السنَّة: بأن السهام إذا كانت ثلاث مرات فإنها لا تخطئ..

فألقى نفسه، فالتقمه الحوت، فطاف به البحار السبعة حتى صار إلى البحر المسجور.. وبه يعذب قارون، فسمع قارون صوتاً، فسأل الملك عن ذلك، فأخبره أنه يونس، وأن الله قد حبسه في بطن الحوت.

فقال له قارون: أتأذن لي أن أكلمه؟!

فأذن له.

فقال: يا يونس، فما فعل الشديد الغضب لله موسى بن عمران؟!

فأخبره أنه مات، فبكى.

قال: فما فعل الرؤوف العطوف على قومه هارون بن عمران؟!

فأخبره أنه مات، فبكى وجزع جزعاً شديداً..

وسأله عن أخته كلثم، وكانت سميت له..

فأخبره أنها ماتت..

فقال: وا أسفا على آل عمران..

ـ قال ـ فأوحى الله إلى الملك الموكل به: أن ارفع عنه العذاب بقية الدنيا

لرقته على قومه[1].

8 ـ وعن الإمام الرضا «عليه السلام» قال: «إن يونس لما أمره الله بما أمره، فأعلم قومه، فأظلهم العذاب، ففرقوا بينهم وبين أولادهم، وبين البهائم وأولادها، ثم عجوا إلى الله وضجوا، فكف الله العذاب عنهم، فذهب يونس مغاضباً، فالتقمه الحوت، فطاف به سبعة أبحر».

فقلت له: كم بقي في بطن الحوت؟!

قال: «ثلاثة أيام، ثم لفظه الحوت وقد ذهب جلده وشعره، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين فأظلته، فلما قوي أخذت في اليبس، فقال: يا رب، شجرة أظلتني يبست.

فأوحى الله إليه: يا يونس، تجزع لشجرة أظلتك ولا تجزع لمائة ألف أو يزيدون من العذاب»؟![2].

وقد ذكرنا: أن يونس «عليه السلام» ذهب مغاضباً قبل أن يعرف بارتفاع العذاب عن قومه، كما تدل عليه بعض الروايات..

فإن قيل: هذه الرواية تدل على عكس ذلك، لقلنا: إنها وإن دلَّت على

---

(1) تفسير العياشي ج2 ص136 والبرهان (تفسير) ج3 ص64 وتفسير أبي حمزة الثمالي ص245 ونور الثقلين (تفسير) ج3 ص454 وكنز الدقائق (تفسير) ج6 ص106 وج8 ص463.

(2) تفسير العياشي ج2 ص137 والبرهان (تفسير) ج3 ص64 و 65 وبحار الأنوار ج14 ص400 ـ 401 وكنز الدقائق (تفسير) ج11 ص188 وج6 ص107 وج8 ص463 ونور الثقلين (تفسير) ج4 ص438 وج2 ص328 وج3 ص454.

العكس، لكنها لم تذكر هل غاضب يونس «عليه السلام» قومه، أم غاضب ربه؟! ولأن يونس معصوم، فيتعين أن تكون المغاضبة لقومه..

9 ـ حدثنا تميم بن عبد الله بن تميم القرشي «رضي الله عنه» قال: حدثني أبي، عن حمدان بن سليمان النيسابوري، عن علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى «عليهما السلام»، فقال له المأمون: يا بن رسول الله أليس من قولك: الأنبياء معصومون؟!

قال: بلى.

إلى أن تقول الرواية: فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن، فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿**وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ**﴾.

فقال الرضا «عليه السلام»: ذاك يونس بن متى «عليه السلام»، ذهب مغاضباً لقومه، ﴿**فَظَنَّ**﴾، بمعنى: استيقن ﴿**أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ**﴾.. أي لن نضيق رزقه، ومنه قوله عز وجل: ﴿**وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ**﴾[1]، أو ضيق وقتر ﴿**فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ**﴾. أي ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت ﴿**أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ بتركي مثل هذه العبادة التي قد فرَّغتني لها في بطن الحوت، فاستجاب الله له، وقال عز وجل: ﴿**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾.

فقال المأمون: لله درك أبا الحسن..[1].

---

(1) الآية 16 من سورة الفجر.

(1) عيون أخبار الرضا (نشر رضا المشهدي) ج1 ص201 و (ط الأعلمي) ج1 ص179 والإحتجاج للطبرسي ج2 ص221 وبحار الأنوار ج11 ص82

10 ـ وفي نص آخر عن أبي عبد الله «عليه السلام»: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قال لأم سلمة: «يا أم سلمة، وما يؤمنني؟! وإنما وكل الله يونس بن متى إلى نفسه طرفة عين، فكان منه ما كان»[1].

11 ـ وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر «عليه السلام» في قوله: ﴿**وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا**﴾ يعني: من أعمال قومه.. ﴿**فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ**﴾ يقول : ظن أن لن يعاقب بما صنع[2].

12 ـ وعنه، قال: حدثنا أحمد بن زياد بن جعفر الهمداني «رضي الله عنه»، والحسين بن إبراهيم بن أحمد بن هشام، وعلي بن عبد الله الوراق «رضي الله عنه»، قالوا: حدثنا علي بن إبراهيم بن هاشم، قال: حدثنا القاسم بن محمد البرمكي، قال: حدثنا أبو الصلت الهروي، عن الرضا «عليه السلام»، فيما أجاب

ومسند الإمام الرضا للعطاردي ج2 ص129 والبرهان (تفسير) ج5 ص241 و (ط مؤسسة البعثة) ج3 ص833 ونور الثقلين (تفسير) ج3 ص449.

(1) البرهان (تفسير) ج5 ص242 و (ط مؤسسة البعثة) ج3 ص834 وبحار الأنوار ج14 ص384 وج16 ص218 ومستدرك سفينة البحار ج10 ص424 وتفسير القمي ج2 ص49 ونور الثقلين (تفسير) ج3 ص451 وكنز الدقائق (تفسير) ج8 ص459 والنور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين ص433.

(2) البرهان (تفسير) ج5 ص242 و (ط مؤسسة البعثة) ج3 ص835 وتفسير القمي ج2 ص49 و (مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر ـ قم ـ إيران) ج2 ص75 وبحار الأنوار ج14 ص385 ونور الثقلين (تفسير) ج3 ص451 وكنز الدقائق (تفسير) ج8 ص459.

به علي بن محمد بن الجهم في عصمة الأنبياء، فقال له: يا بن رسول الله، أتقول بعصمة الأنبياء؟!

فقال: «نعم، فقل ما تعلم».

فذكر الآي، إلى أن قال: وقوله عز وجل: ﴿**وذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْه**﴾.

فقال «عليه السلام»: «وأما قوله عز وجل: ﴿**وذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْه**﴾.. إنما ظن ـ بمعنى استيقن ـ أن الله لن يضيق عليه رزقه، ألا تسمع قول الله عز وجل: ﴿**وأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاه فَقَدَرَ عَلَيْه رِزْقَه**﴾؟![1]. أي ضيَّق عليه، ولو ظن أن الله لن يقدر عليه لكان قد كفر»[2].

(1) الآية 16 من سورة الفجر.

(2) البرهان (تفسير) ج5 ص241 ـ 242 و (ط مؤسسة البعثة) ج3 ص834 وبحار الأنوار ج11 ص73 وج16 ص218 ونور الثقلين (تفسير) ج3 ص451 وكنز الدقائق (تفسير) ج8 ص449 و 457 والنور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين ص12 ومجمع البحرين ج1 ص294 والأمالي للصدوق ص151 وعيون أخبار الرضا ج1 ص171 ومسند الإمام الرضا للعطاردي ج2 ص93.

الفصل الثالث:

وقفة مع أحاديث الفريقين..

بداية:

إن هذا السرد للأخبار التي تحدثت لنا عن قصة يونس «على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام» قد وضعنا أمام حقائق مهمة، يمكن تلخيصها على النحو التالي:

الفرق بين روايات الشيعة، وروايات غيرهم:

إن ملاحظة الروايات التي رواها غير الشيعة، والتي رواها الشيعة عن أئمتهم «عليهم السلام» يعطي:

1 ـ أن روايات الشيعة لم تتجاوز الأئمة الاثني عشر من أهل بيت النبوة «عليهم السلام»، وهم الذين أرجع إليهم رسول الله «صلى الله عليه وآله» لأخذ الحقائق منهم، وضمن لمن يفعل ذلك، ويتمسَّك بهم، وبالقرآن أن لا يضل أبداً.

وأخبر أن هذا الأمر مضمون في كل زمان إلى أن تقوم الساعة.

وعلى هذا الأساس، نجد الإمام الصادق «عليه السلام» يقول: «فَلْيُشَرِّقِ الْحَكَمُ [بن عتيبة] ولْيُغَرِّبْ.. أَمَا والله، لَا يُصِيبُ الْعِلْمَ إِلَّا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ نَزَلَ عَلَيْهِمْ جَبْرَئِيلُ»[1].

---

(1) راجع: بصائر الدرجات ص29 والكافي ج1 ص399 و 400 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج27 ص69 و (الإسلامية) ج18 ص47 ومستدرك الوسائل ج17

2 ـ من المعلوم: أن الرواة عن أهل البيت «عليهم السلام»، قد يخطئون، أو يسهون، أو ينسون، أو يخلطون بين الأمور أحياناً، لكن ذلك أمر نادر الحصول، ولا يرى العقلاء في ذلك مانعاً من الأخذ والاتِّباع، إذا لم يثبت حصول شيء منه في المورد الذي يراد التعامل معه..

كما أن ذلك لا يمنع من أن يكون بعض الرواة الذين ينسبون رواياتهم إلى أهل البيت «عليهم السلام» ليسوا من أتباع أهل البيت.. بل من أعدائهم الذين يريدون تشويه صورتهم، فينسب هذا الراوي إليهم ما لم يقولوه، أو يحرِّف، ويتلاعب بما قالوه، خدمة لسلاطين الجور، وتأييداً لنحلة باطلة، أو كيداً منه، أو انقياداً لهوى، وما إلى ذلك..

وهذا الأمر لا يمنع من الأخذ منهم «عليهم السلام» أيضاً.. بل هو يوجب بذل الجهد لكشف هؤلاء الكذابين والمنحرفين.. فمن لم يفعل ذلك، وتغابى، أو تعامى عنهم، فإنه يكون هو المقصِّر، وهو الذي أوقع نفسه بالمحذور، و﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[1].

ويمكن التقليل من تأثير عمل هؤلاء، بتحاشي الرواية عنهم، أو بالتماس القرائن الصحيحة الأخرى، التي تساعد على اختيار ما هو أقرب لنهج أهل البيت، وطريقتهم، والمسلمات عندهم «صلوات الله وسلامه عليهم».

ص274 وبحار الأنوار ج2 ص91 وج46 ص335 والبرهان (تفسير) ج1 ص137 وكنز الدقائق (تفسير) ج1 ص166 ونور الثقلين (تفسير) ج1 ص33 و 34 ومرآة العقول ج4 ص309 .

(1) الآية 105 من سورة المائدة.

على أنه لو كان هذا الأمر يمنع من الرجوع إلى الأئمة «عليهم السلام» لمنع الرجوع إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فقد صرَّح أمير المؤمنين «عليه السلام» ـ على ما روي في الكافي وغيره ـ: بأن الكذَّابة على النبي «صلى الله عليه وآله» قد كثروا في حياته «صلى الله عليه وآله»، حتى لقد خطب الناس وقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ الْكَذَّابَةُ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَه مِنَ النَّارِ.. ثُمَّ كُذِبَ عَلَيْه مِنْ بَعْدِه»(1).

وفي الروايات: أنه «صلى الله عليه وآله» قال: «ستكثر علي الكذابة من بعدي»(2).

3 ـ ولكن ذلك لم يمنع من رجوع الناس إليه «صلى الله عليه وآله» لأخذ الأحكام، وحقائق الدين منه.. إلا أنه كان عليهم أن يبحثوا عن الصادقين، ويميزوهم عن الكاذبين..

ولكنهم ليس فقط لم يفعلوا ذلك، بل حكموا بعدالة وصدق كل من رأى النبي «صلى الله عليه وآله» إذا كان مميزاً، وتجاهلوا ما قاله النبي «صلى الله

---

(1) الكافي ج1 ص62 والإعتقادات في دين الإمامية ص118 والخصال ج1 ص255 وتحف العقول ص193 والإحتجاج للطبرسي ج1 ص393 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج27 ص207 و (الإسلامية) ج18 ص153 ومستدرك الوسائل ج9 ص91 وج17 ص340 وكتاب سليم بن قيس (بتحقيق الأنصاري) ج1 ص181 وبحار الأنوار ج2 ص229 وج34 ص169 وج36 ص273 وروضة المتقين ج12 ص201 والغيبة للنعماني ص81 والإستنصار للكراجكي ص11.

(2) الإحتجاج ج2 ص246 ورسائل الشريف المرتضى ج2 ص56.

عليه وآله»، وأخبرهم به من كثرة الكذابين عليه في حياته، وبعد وفاته، سواء أكانوا ممن رأوه، أو من غيرهم.. وشرَّعوا للناس، ولعلمائهم وفقهائهم نقيضه.

وهذا خطأ عظيم، وظلم جسيم لرسول الله «صلى الله عليه وآله» وللحق، وللأمة، إن لم نقل: إنه خيانة للأمانة التي حمَّل النبي «صلى الله عليه وآله» الناس إياها.

4 ـ إن روايات الشيعة عن أئمتهم «عليهم السلام» لقصة يونس «عليه السلام» قد جاءت صافية ـ تقريباً ـ من الإساءة لهذا النبي الكريم.. وأوضحت أن ما جرى له كان لتأكيد عظمته، ورفعة شأنه، وسموٍّ مقامه عند الله سبحانه.

5 ـ يلاحظ أيضاً: أن روايات الشيعة عن أئمتهم لا تختلف عن روايات غيرهم لأصل الحدث، ومفاصله الأساسية..

ولكن روايات غير الشيعة تتصرف في بعض التعابير، وتضيف بعض التفاسير، وقد تتصرف في التراكيب البيانية، أو تضيف تأويلات، وتوصيفات، وشروحاً لمعاني الآيات، تتضمن إساءات وإهانات لمقام هذا النبي العظيم..

كما أنها تتبرع بالكشف عن نوايا ودوافع لم نر ما يبرر نسبتها للأنبياء، ولم يذكر لنا رواة هذا الحدث، من أين أتوا بها؟! وكيف حصل لهم العلم بها؟! مع أنها أمور لا تُدرك بالظنون، ولا تُنال بالعقول..

6 ـ على أننا نقول:

إننا لا نستغرب ذلك كله منهم، فإن أكثر روايات هذا الحدث الذي حصل قبل مئات السنين من بعثة نبينا الأكرم محمد «صلى الله عليه وآله»، قد حكاها لنا أناس، من دون أن ينسبوها إلى أحد، مع أن أكثرهم قد عاش بعد

زمان رسول الله «صلى الله عليه وآله»..

فقد رووا هذه الأمور عندهم عن ابن عباس «رحمه الله»، ولم نره ينسب معظمها إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»..

ورووها أيضاً عن قتادة، وطاووس، وعكرمة، وحميد بن هلال، ومجاهد، وابن جريج، وسعيد بن جبير، وعمرو بن قيس، وسالم بن أبي الجعد، ووهب بن منبه.. وأكثر هؤلاء يأخذون عن أهل الكتاب..

وعن أبي هريرة الذي كان ينسب إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» ما يأخذه من كعب الأحبار، ومن أهل الكتاب..

وبعض تلك الروايات رويت أيضاً عن أمير المؤمنين علي «عليه السلام»، وعن الإمام الحسن «عليه السلام»، وقد ينسب شيء من ذلك الحديث إلى ابن مسعود، وأبي بن كعب، وشهر بن حوشب أيضاً..

فإذا كان أكثر رواة هذه القضية يأخذون من أهل الكتاب، وأكثرهم لم يقل: إنه يروي ما يقوله عن النبي «صلى الله عليه وآله»، فكيف نتبنى قولهم، ونعتمد على رواياتهم؟!

ويتأكد هذا أيضاً، إذا كنَّا نعلم علم اليقين: أن النبي «صلى الله عليه وآله» لم يأمر بالأخذ عن هؤلاء الرواة، حتى ابن عباس، فضلاً عن غيره من الصحابة، باستثناء علي والحسن «عليهما السلام».

كما أنه لم يجعل أحداً، باستثناء علي والحسن «عليهما السلام» عِدلاً لكتاب الله إلى يوم القيامة، ولم يضمن لمن تبعهم الأمن من الضلال، بل حصر المرجعية للأمة بغيرهم. أي بأهل البيت، وكتاب الله، كما في حديث الثقلين.

7 ـ وبالنسبة لقصة يونس، فإن سلامة الروايات المروية عن الأئمة «عليهم السلام» من أية إساءة، أو مؤاخذة لنبي الله يونس «عليه السلام»، يعبر عن التزام الشيعة تبعاً لأئمتهم بالثوابت والمرتكزات، والعقائد الصحيحة، وقد ترك هذا أثره الإيجابي على مجمل علاقتهم بالأنبياء، ونظرتهم لهم..

ولو وجد في مورد من هذه الروايات أي شيء يمكن أن يمثل مؤاخذة ليونس «عليه السلام»، ولو في رواية ضعيفة، فإنك تجد شيعة أهل البيت «عليه السلام» يتململون من سماع ذلك، ويبدأ البحث عن المخارج في كل اتجاه.. فإن لم يجدوا لها مخرجاً، فإنهم يطرحونها..

ويلاحظ على بعض الروايات التي يشتم منها بعض ما لا يستساغ نسبته للأنبياء «عليهم السلام» ما يلي:

أولاً: أن الرواة لها هم ممن لا يعتمد عليهم الشيعة، وقد يكون للأئمة «عليهم السلام» بعض التصريحات بذمهم أيضاً.

ثانياً: إن المحدثين والعلماء من الشيعة كانوا منفتحين على الرواة والعلماء من غيرهم.. ومن شأن هذا الانفتاح: أن يترك بعض الأثر لدى البعض، وقد يأخذ كل منهم من الآخر.. وقد تختلط الأمور على هذا وذاك أحياناً..

وبمراجعة لائحة الاتهامات والإساءات التي توجه إلى النبي يونس «عليه السلام»، ومقارنتها بما ورد في الروايات يُعلم: أن روايات غير الشيعة هي المنشأ والمرجع، والمآل لها.. وقد بقي الناس يتداولونها، ويتناقلونها جيلاً بعد جيل، وإلى أيامنا هذه..

ومن روايات أهل السنَّة وكتب تفسيرهم، انتقلت إلى بعض كتَّاب،

ومفسري الشيعة أيضاً، فمنهم أخذوا، وبهم تأثَّروا.. ولكنه بقي تأثراً محدوداً جداً، ومتشحاً بلباس الغرابة والهجنة، ويواجه بالرفض لأي تشويه لصورة الأنبياء الناصعة..

ثالثاً: إن ما يهوِّن الخطب على الشيعة، ويزيده قسوةً ومرارةً لدى غيرهم، وجود فارق أساسي وحاسم بين هؤلاء وأولئك.

فالشيعة لديهم معايير وثوابت، ومنطلقات فكرية، ومناهج بحثية علمية قادرة على رد الحجر من حيث جاء، وتمكنهم من اكتشاف الخلل ومعالجته بصورة حاسمة، وإعادة الباحث إلى طريق الصواب..

أما غير الشيعة، فهم لا يملكون مثل هذه المناهج، والثوابت، والمنطلقات.. لأنهم قد ألزموا أنفسهم بمعايير وضوابط أخرى، تكرس الخطأ وتحفظه، وتدافع عنه، والتزموا بمناهج تفرض عليهم طريقة معينة في التعامل، وفي التفكير، والبحث، وتعمق علاقتهم بالنصوص الموروثة، التي فرضت الظروف والسياسات تقديسها، وإلزام أتباعهم بها، والإصرار على اعتمادها.. ولو بقيمة العدوان على الكرامات والمقامات، بالاتهامات الباطلة حيناً، وبغير ذلك أحياناً أخرى..

والذي زاد الطين بلة: أنهم أطلقوا على هذه المناهج الحافظة للخطأ والخلل صفة العلم، ونحلوها شرف البحث الموضوعي وقداسته.

وقد ذكرنا في كتابنا: الصحيح من سيرة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله»، في بعض فصول الجزء الأول: الضوابط التي اعتمدوها لحفظ الخطأ، وتكريس الاختلالات..

وذكرنا أيضاً فصلاً آخر عن الضوابط التي اعتمدها الشيعة، والتي من شأنها أن تكشف الخطأ والخلل، وتحاصره، وتمنع من تسربه وشيوعه، وتأخذ بيد الباحث إلى طريق الحق والخير، والصواب والهدى.

اختلالات في الروايات:

أولاً: إننا نذكر من هذه الاختلالات التي نشاهدها في روايات غير الشيعة لقصة يونس، الفقرات التالية كأمثلة وشواهد، دون أن نذهب إلى الاستقصاء والاستيعاب:

ـ تيب على قوم يونس يوم عاشوراء (مع أنه إذا كان نزول العذاب في النصف من شوال ـ كما في رواية أخرى ـ فإن التوبة عليهم قد حصلت في نفس ذلك اليوم.. وأين شوال من يوم عاشوراء، في شهر المحرم؟!)

ـ ﴿**أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ**﴾: أن لن نقضي عليه عقوبة ولا بلاء فيما صنع بقومه في غضبه عليهم وفراره.

ـ وعقوبته أخذ النون إياه.

ـ فظن أن لن تبلغ خطيئته أن يقدر الله عليه فيها العقاب.

ـ قال ـ الله ـ ذاك عبدي يونس، عصاني، فحبسته في بطن الحوت في البحر.

ـ وهو مليم: أي مسيئ فيما صنع.

ـ المليم: المسيئ والمذنب.

ـ لا والله، لا آتيهم وقد جربوا عليَّ كذبة، فخرج، فذهب مغاضباً لربه.. (إلا أن يقال: المراد: أن الوحي كذبة في اعتقادهم، والمغاضبة لربه قد يكون

المراد: أنه غاضب قومه لأجل رضا ربه، أو لأجل ربه..

أما إذا كان المراد: أنه غضب لأن الله تعالى لم يعذِّب قومه بعد أن تابوا وآمنوا به، فإن هذا التوجيه لا يناسب ذلك.. لاسيما وأن تحقق المغاضبة من الطرفين يصبح صعباً).

ـ لا تكن كصاحب الحوت، تغاضب كما غاضب يونس.

ـ وهو مذموم: قال: مليم.

ثانياً: أما روايات الشيعة، فلا نكاد نجد فيها شيئاً من هذا القبيل.. بل هي روايات سليمة ومقبولة، باستثناء رواية واحدة، وهي رواية أبي عبيدة الحذَّاء، عن أبي جعفر، فإنها لا يمكن الاعتماد عليها، لأنها رواية مرسلة، لم نجدها إلا في تفسير العياشي، الذي لم يذكر أسانيد الروايات في تفسيره الذي بين أيدينا.. وقد تجد في رواية أخرى، وهي برقم [7] ما قد يستشم منه شيء من ذلك..

والحاصل: أنك تكاد لا تجد في روايات الشيعة.. إلا ما قلَّ منها، أي تعرض ليونس «عليه السلام» بأي كلام يدل على صدور أي إساءة منه، أو غير ذلك مما يحط من مقامه، أو يثير شبهة حول صوابية ما صدر منه.. بل هي تتضمن إشارات ودلالات على نزاهته، وبراءته، وعلو مقامه، ومزيد شرفه، وعظيم كرامته، ورفعة شأنه عند الله..

رواية إنكار الولاية:

وإذا ما أراد أحد أن يتشبث بالرواية رقم [2] التي تقول: إن الله تعالى عرض ولاية أمير المؤمنين «عليه السلام» على أهل السماوات والأرض، فكان

يونس ممن أنكرها، فحبسه الله تعالى في بطن الحوت حتى أقر بها، فإننا نقول له:

إن هذه الرواية لا تتضمن طعناً على يونس «عليه السلام»، وهي جارية على قاعدة: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1]، فإن القناعة العقلية هي أساس الإيمان، لأنها تنتج اليقين الذي يهيئ للتبني والالتزام، والخضوع القلبي والوجداني.

ولكن السكينة، والطمأنينة، تأتي من خلال الإدراك الحسي، والتلمس، والمشاهدة للأمر المتيقن، فمن يرى الدخان يعلم بوجود النار، ولكن إذا رأى النار، فإن يقينه بوجودها يزداد، فإذا لفحته النار بلهبها، اطمأن قلبه بوجودها بصورة أتم.

وهذا العرض على يونس «عليه السلام»، إنما كان في نشأة سابقة، لعلها في عالم الذر، الذي أشارت إليه الآية الكريمة..

ويونس «عليه السلام» قد يكون جرى له نفس ما جرى للملائكة، حين قال لهم الله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2]، حيث أدركوا: أن الخليفة إذا كان موجوداً، مختاراً، وكان من لحم ودم، ولديه شهوات وغرائز، ونزوات، وعقل واسع القدرات، فإنه سوف يفسد في الأرض، ويسفك الدماء.. ولكنهم لم يشكوا في صحة ووقوع ما أخبرهم الله تعالى به.

كما أن الله تعالى حين أخبر إبراهيم «عليه السلام» أنه يحيي الموتى، ويبعث من في القبور، صدَّق وآمن بذلك.. ولكنه أراد المشاهدة الحسِّية، طلباً لطمأنينة

---

(1) الآية 260 من سورة البقرة.

(2) الآية 30 من سورة البقرة.

القلب..

ويونس «عليه السلام» أيضاً، حتى في ذلك العالم صدَّق وآمن بما أخبره الله تعالى به، من جعل الولاية لعلي، ولكنه عجز عن وعي حقيقتها، المتمثلة بالقدرة على التصرف في الموجودات، والعروج إلى السماوات، والهيمنة على الكائنات، فيتمكن مثلاً من الإتيان بعرش بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس، في أقل من ارتداد الطرف، ومن فَلْقِ البحر كما فُلِقَ لموسى «عليه السلام»، ومن إحياء الموتى، كما جرى على يد عيسى «عليه السلام»، ومن فتق الجبل فوق بني إسرائيل، ويكون شاهداً على الخلق، يرى أعمالهم، ويرعى شؤونهم، وغير ذلك.

ولصاحب هذه القدرات له عقل، وعواطف، ومشاعر، وغرائز، وشهوات، وميول.. فكيف يمكن ضبط حركته، إذا كان مختاراً، مريداً، هو الذي يفكِّر، ثم يقرِّر ويدبِّر.

وقد صدَّق يونس «عليه السلام» في تلك النشأة، وآمن بما قاله الله سبحانه له، ولكنه لم يهتد إلى كيفية حصول ذلك، مع ضمان تحقيق الغايات الإلهية من خلاله.. فأوكل علم ذلك إلى الله سبحانه.. فكان التقام الحوت له، وبقاؤه حياً في بطنه، وتمكنه من عبادة الله فيه هو الدرس الحسي الذي يجب أن يتعلمه، ليتلمس قدرة الله تعالى اللامتناهية، فكان أن نادى ربه في تلك الظلمات، معلناً بتنزيهه عن أي عجز، أو نقص، أو ضعف، أو جهل، أو ظلم، أو عبث، أو ما إلى ذلك.. وسيأتي المزيد إن شاء الله حول هذا الموضوع.

من شبهاتهم:

ومهما يكن من أمر، فإن بعض المعروفين من المؤلفين، قد وقعوا في المحذور،

في تفسيرهم للآيات الشريفة التي ذكرت قصة يونس «عليه السلام».

ونذكر من ذلك على سبيل المثال والنموذج:

أولاً: إنهم فسروا قوله تعالى: ﴿**إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ**﴾: بأن الإباق هو فرار العبد من سيده..

ومعنى هذا: أن يونس «عليه السلام» هرب من ربه لا من قومه.. لاسيما وأن الله هو سيد يونس، ويونس «عليه السلام» عبد لله، وليس قومه أسياداً له، ولا هو عبد لهم..

ثانياً: إن نفس يونس اعترف بالظلم في قوله: ﴿**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾.

ثالثاً: قالوا: إن ابتلاع الحوت ليونس «عليه السلام» كان عقوبة له على ما صنع بقومه.

رابعاً: قالوا: إن قوله تعالى في سورة القلم: ﴿**وَهُوَ مُلِيمٌ**﴾ معناه: وهو ملام، أو مذنب، أو مسيء، لأن الناس يلومونه على ما فعل، وهذا يدل على أنه قد تجاوز الحدود، ووقع في الخطأ..

إلى غير ذلك مما يجده المتتبع لكتب التفسير.

خلاصة لقصة يونس ×:

وبعدما تقدم نقول:

إننا نحب أن نوجز قصة يونس «عليه السلام» هنا للتسهيل على القارئ الكريم، وهي كما يلي:

أرسل الله تعالى يونس «عليه السلام» إلى قومه، وهم ـ كما قيل ـ: من

بقايا قوم ثمود، الذين لم يهلكوا بالعذاب النازل على قومهم، بسبب ما فعلوه بالناقة وفصيلها!

وبقي في قومه ثلاثين سنة، أو ثلاثاً وثلاثين، أو أربعين سنة، يدعوهم إلى الله تعالى، فلا يستجيبون.. واجترأوا عليه، وأرادوا قتله، فدعا عليهم، وتنحى عنهم، لأن العذاب إذا نزل عمّ، ولا يعذِّب الله قوماً ونبيهم بينهم، كما أظهرته قصة لوط «عليه السلام»، فإن الله تعالى أمره بالخروج بأهله من بينهم، ثم أنزل العذاب عليهم..

وفي الوقت المحدد ظهرت بوادر نزول العذاب على قوم يونس، كاسوداد الوجوه، وهبوب الرياح الصفراء، وغير ذلك.. فأشار عليهم أحد العلماء المؤمنين بالتوبة، فتابوا، فرفع الله العذاب عنهم..

أما يونس «عليه السلام»، فسار عن قومه مغاضباً لهم، حتى بلغ البحر، فوجد سفينة مشحونة بالناس على شرف المغادرة، فطلب منهم أن يحملوه معهم، فحملوه..

فلما أصبحت في عرض البحر وقفت السفينة، واعترضهم حوت عظيم، ظهر لهم أنه يريد صيداً، فأجروا القرعة على أهل السفينة، ليقذفوا واحداً من ركابها للموت، فخرجت القرعة على يونس «عليه السلام» ثلاث مرات، فألقي يونس إلى البحر، فالتقمه الحوت وابتلعه وذهب.

وبعد ذلك بساعات أو أيام قذفه الحوت على ساحل البحر في العراء، وهو في حالة صعبة، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين، فتعافى.. ثم رجع إلى قومه، فآمنوا به، وأطاعوه..

القسم الثاني

يونس × في القرآن الكريم..

الفصل الأول:

آيات يونس في سورة الأنبياء..

توطئة لتفسير الآيات:

لا بأس بالنظر إلى ما يلي:

1 ـ بما أن الآية في سورة يونس تتحدث عن قوم يونس، لا عن يونس مباشرة، فقد أرجأنا الحديث عنها إلى الموقع الذي يقتضي التعرض لها فيما يأتي من فصول..

2 ـ إن هدفنا من تفسير الآيات، هو: أن نرى موقفها من الشبهات والأباطيل التي أثيرت حول يونس، وأن نوقف القارئ الكريم على دلالاتها، إن كان فيها ما يبرر إثارة الشبهة حول يونس «عليه السلام» في عصمته، وفي عمله الرسالي.

فالتعرض لتفسير الآيات، إنما هو لهذا الغرض، ولعل الآية التي في سورة يونس ليس لها ارتباط مباشر بغرضنا هذا.

3 ـ إن هذا يجعل الدخول في جزئيات وتفاصيل ترتبط بالآية التي في في سورة يونس أمراً لا ضرورة له.. لأننا بصدد بحث محدد الهدف، والمورد، والدافع، وكل ذلك خارج دائرة الدلالات المباشرة لهذه الآية..

وبعدما تقدم يتضح: أن الأوْلى هو الشروع في البحث في الآيات التي في السور الأخرى، ونبدأ بما ورد في سورة الأنبياء.

في سورة الأنبياء:

قال تعالى في سورة الأنبياء، الآيتان 87 ـ 88:

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

صدق الله العلي العظيم..

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا:

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ﴾.. فكلمة «ذا» بمعنى: صاحب.. تقول: ذو اليد، أو ذو مال: أي صاحب اليد، والمال. والنون: هو السمكة الكبيرة، وهي الحوت هنا، لقوله تعالى في سورة الصافات: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾.

و «ذا» هنا مفعول به لفعل محذوف، تقديره: اذكر ـ مثلاً.

﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾: غاضب على وزن فاعل، فالألف التي في وسط الكلمة يقال لها: ألف المفاعلة، لدلالتها على أن الفعل قد حصل من الطرفين، كما في ضارب، أو قاتل زيد عمرواً: أي حصل الضرب أو القتال من الطرفين.

والمغاضبة أيضاً كذلك، تدل على أن السعي للإغضاب حصل من الطرفين.

وهذا يعني: أن مغاضبة يونس «عليه السلام» لم تكن مع الله، لأن الله تعالى لم يكن بصدد إغضاب يونس، وكذلك العكس.. بل كان قوم يونس هم الذين يسعون لإغضاب يونس، ويسعى هو لإغضابهم، لأنه بقي عشرات السنين.. ثلاثين، أو ثلاثة وثلاثين، أو أربعين سنة، يدعوهم للإيمان، ويتحمل

الأذايا والمكاره منهم، دون فائدة أو عائدة.

فليس في قوله تعالى: ﴿**مُغَاضِبًا**﴾ أية دلالة على حصول تقصير أو قصور، أو تهرب، أو فرار من قبل يونس «عليه السلام».. بل قد يُشعر ذهابه، حالة كونه مغاضباً: أنه أراد أن يكون ذهابه من وسائله الهادفة لإغضاب قومه..

ويلاحظ: أنه ليس في الآية دلالة على ما اعتمده قومه من إجراءات لإغضابه.. غير أننا نعلم: أن مساعيهم هذه تصب في اتجاه شلّ حركته، وصدِّه عن القيام بأي جهد يفيد في هداية الناس إلى الإيمان، فإن هذا الأمر سيكون أشد إيلاماً له، وهو الأمر الذي يغضبه ويثيره..

وكان دعاؤه عليهم، وإخبارهم بنزول العذاب، الذي أكَّده بخروجه من بينهم.. ـ كان ـ من أهم وسائل إغضابهم وإثارة حفيظتهم..

لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ:

ثم قال تعالى: ﴿**فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ**﴾. التقدير هنا بمعنى: التضييق، قال تعالى في آية أخرى: ﴿**فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ**﴾. أي ضيَّق عليه فيه، فلم يعط ما يريده منه، أو لم يعط بمقدار حاجته.

والمراد بالظن هنا: اليقين والاعتقاد، فهو على حد قوله تعالى: ﴿**وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا**﴾[1].. فالمراد بالظن هنا: العلم، بقرينة: أنهم رأوا النار، وأنهم لم يجدوا مصرفاً عنها.. وهنا يجب أن يكون الظن بالله حسناً.. والمطيع لله ـ ولاسيما إذا كان نبياً مرسلاً ـ يعلم

(1) الآية 53 من سورة الكهف.

علم اليقين: أن الله تعالى لا يضيِّق عليه، بل يسهِّل له الأمور، ويوفقه للاستزادة من الخير، في ظل التنشئة الإلهية له، التي تنقله من الحسن إلى الأحسن بصورة مطَّردة.

ويونس «عليه السلام» هنا كان لديه هذا اليقين، وحين التقمه الحوت لم يتزعزع يقينه هذا.. لأن ما حصل له، إن كان من عند الله تعالى، فهو يعلم أن الله لا يفعل به إلا ما هو من مصلحته، وما هو خير له، وما يزيد في مقامه، ويعلي شأنه، وإن كان بتسبيب الآخرين، أو بسبب جريان السنن العامة في الكون والحياة، فلماذا يوجب أمر كهذا اختلالاً أو ضعفاً في الاعتقاد بالله، وبكرمه، ورحمته، وسائر صفاته.. ولاسيما لدى الأنبياء والمرسلين، وأعقل البشر، وأعلمهم بالله، وبأسرار الخلق، وسنن الحياة؟!

فلو أن إنساناً ذهب إلى السوق لقضاء بعض الحاجات، فأصابه مطر أضرَّ به، وابتلي بالزكام، أو بغيره، فلا يقال: إن الله تعالى قدَّر وضيَّق عليه.. لأن المطر لا يختار هذا فيقع عليه.. ويترك ذاك ويتحاشاه، بل المطر يأتي وفق طبعه، وأنت عليك أن تحفظ نفسك منه، وتتحاشى ساعات نزوله، وتحسب الحساب لاحتمالاتها..

والظالمون يؤذون المؤمنين، وليس فعلهم هذا إلهياً، بل هو فعل الظالمين، ولأجل ذلك يعاقبهم الله تعالى عليه.. فلا معنى لنسبة فعلهم إلى الله سبحانه.

فاء التفريع، لماذا؟!:

بقي أن نشير إلى أن الفاء في قوله تعالى: ﴿**فَظَنَّ**﴾ هي فاء التفريع، الذي يفترض أن يكون ما بعده قد حصل بعد ذهابه مغاضباً.. مع أن البيان المتقدم

يعطي: أن يقين يونس «عليه السلام»: بأن الله تعالى لا يضيِّق على أهل طاعته، ليس أمراً حادثاً بعد مفارقته قومه، بل كان قائماً في نفسه، منذ أعطاه الله العقل والتمييز، فما هو المخرج من ذلك؟!

ونجيب:

بأن لليقين مراتب وجودية متعددة، فهو في بعض مراتبه يكون مخزوناً وكامناً في النفس، وفي بعض مراتبه ينتقل من مرحلة الكمون إلى مرحلة الفعلية.. وفي مرتبة الاختزان والكمون يكون مغفولاً عنه، بسبب انشغال النفس والقلب بما عداه.. إذ ﴿**مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**﴾[1].. فإن الحاضر الفعلي.. والظاهر على صفحة القلب يشغل القلب، فلا يحلّ غيره محله، إلا إذا انمحى عن الصفحة الفعلية.. وعاد إلى موضع الكمون والاختزان.

والسبب في الإتيان بفاء التفريع هنا: أن الله تعالى يريد أن يقول: إن من الطبيعي أن يكون ذهاب يونس «عليه السلام» مغاضباً لقومه سبباً في إخراج يقينه من مرحلة الكمون إلى مرحلة الفعلية، ليكون هو الذي يُثبِّت قدم يونس، ويشد من عزيمته.

ولعله «عليه السلام» كان بحاجة إلى هذه القوة والعزيمة، لأن مغاضبته لقومه، وخروجه عنهم لمواجهة مختلف الاحتمالات في سياحة لا يعرف مداها، ولا علم له بما تنطوي عليه من أحداث وأخطار، ومفاجآت، من لصوص، ومن حيوانات مفترسة، أو من فقدان وسائل العيش والحياة، كالماء والغذاء، أو من تعرض لكوارث طبيعية، وغير ذلك..

---

(1) الآية 4 من سورة الأحزاب.

فيكون هذا اليقين بالرحمة واللطف الإلهي به هو الذي يشد عزيمته، ويمنحه الطمأنينة والسكينة، والقوة، وثبات القدم.

النداء في الظلمات:

ثم قال تعالى: ﴿**فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾، فأول ما يواجهنا هنا:

1 ـ أنه تعالى يريد أن يشير إلى أن إلقاء ركاب السفينة ليونس «عليه السلام» في البحر، لمجرد أن القرعة خرجت باسمه هو ظلم وعدوان.. إذ لا يحق لأحد التصرف في حياة الغير، حتى لو أخرجت القرعة اسمه.. وليس هذا من فعل الله به، ولا هو من عقوباته له، كما تدَّعي بعض الروايات المتقدمة، وكما يقول بعض المفسرين.

ولكن هناك روايات دلَّت على أن الله تعالى حفظه كرامة له، وإظهاراً لمقامه، وحباً به.. فهناك من اعتدى عليه وألقاه في اليم، فحفظه الله، حتى في بطن الحوت، تبرئة له، وإظهاراً للمعجزة فيه..

2 ـ ثم إن حفظ يونس في بطن الحوت مدة اختلفت الأقوال فيها، كما تقدم في الروايات هو من المعجزات الظاهرة، التي تجعل من اعتبار ابتلاع الحوت له عقوبة له على خطأ ارتكبه، أو ذنب صدر منه، أمراً غير منطقي، إلا إذا فرض أن إلقاءه إلى الحوت كان فعلاً إلهياً، ولم يكن عملاً عدوانياً من بشر يؤثرون الحياة لأنفسهم على حياة غيرهم..

وأن رعاية الله سبحانه وتعالى ليونس «عليه السلام» في بطن الحوت إلى حدّ أنه مكَّنه من متابعة عبادته، وتسبيحه هو الآخر لا مجال لتصنيفه في دائرة العقوبة.

3 ـ كما أن ملاحظة حال يونس «عليه السلام» حين أصبح في بطن الحوت تعطي أموراً هي:

ألف: إن يونس «عليه السلام» لم يخاطب الله سبحانه وتعالى بغير التسبيح والتنزيه عن كل ظلم، أو جهل، أو نقص، أو عجز، أو ضعف، أو بخل، أو حاجة، أو أي شيء آخر يتنافى مع مقام الألوهية والربوبية.

ب: إنه لم يتفوه بما يدل على أنه يرى: بأن ربه قد تخلى عنه، وتركه في ساعات الشدة، وفي موقع الحاجة.

ولم يتفوه بما يدل على أنه قد ظُلِمَ، أو كُوفئ بما لا يستحق.

ج: إنه «عليه السلام» لم يطلب منه الخلاص مما هو فيه، ولا دعا الله تعالى بشيء لنفسه.. بل قصر كلامه على ثلاثة أمور هي:

الأول: الجهر بالتوحيد الخالص، حيث نادى قائلاً: ﴿**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**﴾، المتضمن لنفي الشريك، ليدل بذلك على أن قلبه لن يتعلق بغير الله، ولن يكون له ملجأ سواه.

وربما كان السبب في الجهر بهذا التوحيد: أن بقاءه حياً في داخل بطن الحوت، وفي الظلمات في أعماق البحار، لا يمكن أن يكون إلا بالفعل الإلهي.

وبذلك يكون قد لمس عناية الله به، أو رعايته له، فلا بد أن يفنى فيه، ولا يرى سواه، ولا يتعلق قلبه إلا به.. وهذا هو التوحيد الخالص، في حين أن الشرك في الناس أخفى من دبيب النمل»[1]..

---

(1) معاني الأخبار ص379 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج5 ص99 وج16 ص254 و (الإسلامية) ج3 ص409 وج11 ص498 وبحار الأنوار ج68 ص142

لأن الناس يرون أن مالهم، وولدهم، وعشيرتهم، وزعيمهم، وطبيعتهم، وأرضهم، ورجالهم، وكل الوسائل، والآلات، وجميع طاقاتهم، وجوارحهم، وعقولهم، وما إلى ذلك.. هو الذي يحل مشاكلهم، ويبلغهم آمالهم، ويشفي مرضاهم، ويقضي حاجاتهم، وما إلى ذلك..

فكان هذا الموقف من يونس «عليه السلام» إدانة لهذا الفكر، وتحقيراً، وطرداً لهذا الشعور الموبوء، والمشوب بالشرك الخفي.

الثاني: أنه قال: ﴿**سُبْحَانَكَ**﴾، وهذا جهر منه بالتنزيه لله تعالى عن كل نقص أو عجز، أو جهل، أو بخل، أو تخلف عن وعد، أو غفلة، أو قسوة، أو ظلم، أو غير ذلك..

وهذا التنزيه التام يعطي النفس الإنسانية السكينة والطمأنينة إلى أن عباد الله سبحانه وتعالى في حصن حصين، وفي ركن وثيق، فما عليهم إلا أن يتوكلوا عليه، ويسلموا أمورهم إليه.

الثالث: قوله: ﴿**إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾، وهي الفقرة التي يعتبرها البعض اعترافاً من يونس «عليه السلام» على نفسه بأنه من الظالمين.. وهذا يمثل خدشاً في عصمته كما هو ظاهر..

غير أننا نقول:

إن هذه الفقرة تضمنت أموراً نشير إليها فيما يلي:

وج69 ص96 و 298 وج70 ص358 وج75 ص371 ومستدرك سفينة البحار ج5 ص398 وتحف العقول ص487 والثاقب في المناقب ص568 والخرائج والجرائح ج2 ص688 ومدينة المعاجز ج7 ص639.

الأنبياء لا يظلمون:

ثم إن أمامنا عدة أسئلة تحتاج إلى إجابات، وهي التالية:

1 ـ إن الأنبياء «عليهم السلام» يعبدون الله، ويأمرون بعبادته، ولكنهم يريدون أن يعبدوه بما يليق بمقام ألوهيته، وربوبيته، وبتفضلاته، ونعمه، وجزيل عطاءاته، وكرمه، أو فقل: يريدون أن يُعْبَد كما هو أهله..

والأنبياء هم أعرف الناس: بأن ما يفعله العباد من الطاعات لا يفي بشكر نَفَس واحد، أنعم الله تعالى عليهم به، وهم أعلم الناس بعظمته تعالى، وبأسراره، وملكوته، وجليل صفاته، وأسمائه، وجميل وباهر آلائه..

وإذا كنا نحن نعرف من الصفات والأسماء ألفاظها، كالتي وردت في دعاء الجوشن مثلاً، فإن الأنبياء يعرفون من معانيها، ما هو أعمق وأصفى، وأكثر إشراقاً، وأشد تألقاً..

من أجل ذلك يرون «صلوات الله وسلامه عليهم»: أنهم مقصرون غاية التقصير تجاه ربهم، وأن أعمالهم لا تليق به سبحانه، وكأنهم يرون أنها لا تُسقط حتى الواجب الذي أمرهم الله تعالى به، وأن عليهم أن يكونوا أكثر جداً واجتهاداً، وأنهم ظالمون لأنفسهم، لأنهم لن يؤدوا حق الله سبحانه.

أي أنهم حين يقيسون عملهم بمقام الألوهية العظيم، الذي لا تناله العقول، ولا ترقى إليه الأوهام، يرون أن عملهم بمثابة هباء[1] في مقابل عظمة خالقهم، وخالق الأرض والسماء..

---

(1) الهباء: الغبار، أو ما يشبه الدخان، وهو ما ينبثُّ في ضوء الشمس.

فهم إذن، مقصِّرون ظالمون لأنفسهم بعدم أداء حق خالقهم.

وعلى سبيل المثال نقول:

قال تعالى: ﴿**وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾[1]، ولم يقل: صلّوا.. لأنه تعالى يريد للصلاة أن تتجسد في حياتنا، وفي سلوكنا، وأقوالنا، وأفعالنا، وسمتنا، وأخلاقنا، ومعاملاتنا، وسياساتنا، ونظراتنا، وفي كل حياتنا، وكل شيء يكون منا لا بد أن يرى الناس صلاتنا فيه.

ومن الواضح: أن إقامة الصلاة بهذا المعنى لا يقدر عليها عادة إلا الأنبياء والأوصياء، وبعد ذلك تأتي المراتب المختلفة، حتى تصبح صلاة كثير من الناس مجرد حركات فاقدة للمضمون.

وبذلك يعلم: أن يونس «عليه السلام» أراد أنه من الظالمين لنفسه بهذا المعنى، ولم يظلم، ولو ظلم لم ينل مقام النبوة، ولا بقي له هذا المقام، لقوله تعالى: ﴿**لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾[2].

ولأنه لم يظلم استحق هذه الألطاف والعطايا، والرعاية الإلهية، بمجرد أن تعرض للعدوان ممن ألقوه في البحر، فقد حفظه الله، ومكَّنه من أن يبقى حياً، وعابداً، وساجداً، وذاكراً لأنعم الله، منزهاً له عن كل ما يخل بمقام الألوهية والربوبية.. وقد فعل ذلك به بصورة إعجازية، تدل على محبة الله تعالى له، وعلو مقامه عنده.. وهذا يدل على أن الله تعالى لم يلقه إلى الحوت، لأنه لم يفعل خلاف ما تقتضيه العبودية، والطاعة..

---

(1) الآية 72 من سورة الأنعام.

(2) الآية 124 من سورة البقرة.

2 ـ وهنا سؤال آخر يقول: لماذا قال يونس «عليه السلام»: ﴿كُنْتُ﴾، ألم يكف أن يقول: إني من الظالمين؟!

ونجيب:

بأنه لو قال: إني من الظالمين، فلربما فهم منه: أنه ينسب الظلم لنفسه في خصوص هذه الفترة المتأخرة من حياته، لأنه فعل ما لا يليق.. مع أنه «عليه السلام» يريد أن يقول: إنه في جميع أدوار حياته كان مقصراً تجاه ربه، ولم يؤد حقه، ولم يعبده حق عبادته.

3 ـ وسؤال آخر يقول: لماذا قال: ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، ولم يقل: كنت ظالماً؟!

ونجيب:

بأنه «عليه السلام» يريد أن يقول: إنه هو وغيره، حتى الأنبياء والأوصياء، وغيرهم كانوا ظالمين لأنفسهم تجاه ربهم، وهم يعترفون: بأن عبادتهم لا تليق بمقام عظمته تبارك وتعالى، ولا تقوم بشكره على ادنى نعمة منحهم إياها..

الإستجابة الإلهية:

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾.. وأول سؤال يراود ذهن القارئ الكريم هنا: أنه تعالى يقول: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ**﴾، مع أن يونس «عليه السلام» لم يطلب من الله تعالى أن ينجيه من الغم..

بل هو لم يطلب من الله أي شيء، وكل ما قاله: إنه أعلن ثلاثة أمور، هي:

1 ـ توحيد الله.

2 ـ تنزيه الله.

3 ـ الاعتراف بأنه كان ظالماً لنفسه على النحو الذي بيَّناه..

ونجيب:

بأن يونس «عليه السلام»، وإن لم يصرح بالطلب، ولكنه أعلن هذه الأمور الثلاثة، ليدل على ما يلي:

1 ـ أن يونس «عليه السلام» ملتزم بالتوحيد الخالص من أي شائبة، ولا يرى له معيناً، ولا إلهاً، ولا معبوداً، ولا ملجأً، ولا.. ولا.. ولا.. سواه سبحانه.

2 ـ إنه «عليه السلام» حين أعلن بالتنزيه والتسبيح يكون قد أكد على حقيقة: أنه إذا كان سبحانه منزهاً عن كل عيب ونقص، وجهل، وحاجة، و.. و.. و.. فإن ذلك يعني: جامعيته تعالى لسائر صفات الجمال والكمال، سواء أكانت من صفات الذات، أو من صفات الفعل، وأنه «عليه السلام» يعيش في كنف هذه الصفات، ويتفيأ ظلالها.

3 ـ ثم اعترف: بأنه ظالم لنفسه، فيكون قد صرف النظر عن التصريح إلى التلميح.. فكأنه قال: إنه لا يدَّعي أنه يرى نفسه مستحقاً لأي شيء، وإنه لا حق له بطلب شيء ـ ولو على سبيل الدعاء ـ بل هو يوكل الأمر إلى الله في صفات كماله وجماله، وحسن فعاله..

من يستحق النجاة؟!:

1 ـ إذا كان يونس «عليه السلام» من الأنبياء والمرسلين بلا ريب، فهو معصوم لا يفعل ما يستحق به العقوبة.. وإن دعاءه على قومه، ومغاضبته لهم، إنما كان غضباً لله سبحانه، فلا يستحق به العقوبة، فإنه إنما فعل نفس ما فعله نوح «عليه السلام».. فإنه أيضاً دعا على قومه، فقال: ﴿**رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى**

الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1]، وقد استجاب الله لنوح «عليه السلام»، فعذَّب الله قومه بالطوفان، وأنجى نوحاً ومن حملهم معه في السفينة.

فَلِما يعاقب الله تعالى يونس المعصوم، والنبي المرسل، ولم يعاقب نوحاً؟!

وهذا هو سبب إنجاء الله تعالى ليونس، فهو إنجاء فيه كرامة ليونس، وتفضل، وامتنان، وحفظ لنبي ورسول.. إذ ليس من المستساغ أن يلقي أحد إنساناً في النار، ثم يقول على سبيل التفضل والامتنان: أنا ألقيته في النار، وقد أنجيته منها.. فإن التفضل التام هو أن لا يلقيه في النار من الأساس، لكي لا يحتاج إلى الإنجاء..

فإن الإنجاء إنما يكون لمن لا يستحق النار ولا العقوبة، وإنما ابتلي بها من قبل الظالمين، أو أوقعت عليه من خارج دائرة اختياره، ولو على سبيل الصدفة، كما لو حصل زلزال هدم بيته عليه.. فيأتي من ينجيه من هذا أو ذاك..

فكأنه تعالى يقول ليونس «عليه السلام» هنا: هم ظلموك، واعتدوا عليك، وأنا أنجيك..

2 ـ ويدل على ما نقول: أن الله تعالى يقول هنا: ﴿**وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾، فهل من المستساغ القول: إن مراده سبحانه: أننا نلقي المؤمنين في النار، وفي بطن الحوت، وفي البحار، ومن شاهق، ثم ننجيهم؟!

أو المراد: أننا كلما وقع المؤمنون في ضائقة أو شدة، أو تعرَّضوا لأذى،

---

(1) الآيتان 26 و 27 من سورة نوح.

نبادر إلى مساعدتهم، ودفع الأذى عنهم، ولو بطريقة إعجازية..

ولتحديد أي من هذين المعنيين هو المراد، علينا بالإضافة إلى ما قدمناه: أن نأخذ بنظر الاعتبار أن قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.. يتحدث عن سنَّة إلهية جارية، وسارية، ملاكها الإيمان التام والصافي، الذي لا تشوبه شائبة التمرد على الله، أو عدم طاعته، فضلاً عن أن يصل إلى حدّ المغاضبة له، فإن هذا هو الذي يدعونا إلى التدخل للإنجاء، والهروب منه.. ولاسيما إذا كان من الأنبياء «عليهم السلام»..

وبالأخص في أمر يرتبط بمهمة أوكلها الله إليهم.. وهي هداية ورعاية طائفة من الناس تزيد على مئة ألف..

وذلك يعطي: أن من يتمرد ويهرب، ويغاضب ربه، لا يكون لديه من الإيمان، ما يوجب نجاته من الشدائد التي يتعرض لها..

وقد رأينا في قصة يونس «عليه السلام» ما يعطي: أن هذا التدخل الإعجازي الهائل، والرعاية الإلهية التي حظي بها يونس «عليه السلام» منذ ألقي في البحر، إلى أن رجع إلى قومه، فإنه لم يحظ به أي مؤمن وقع في شدة، مهما كانت عظيمة.. إلا من اختارهم الله تعالى لأعظم المهمات..

وهذه الحظوة العظيمة ليونس «عليه السلام» عند الله تدل على علو شأنه، وعمق إيمانه، وصفائه، ورسوخه، وخلوصه من أية شائبة، كما ألمحنا إليه آنفاً.

وقد خلَّد الله تعالى هذا الأمر في كتابه العزيز لتستفيد منه الأمم والأجيال إلى يوم القيامة الدروس والعبر، وليكون يونس «عليه السلام» قدوتهم في الإيمان والإخلاص والتقوى.

الفصل الثاني

آيات يونس في سورة الصافات..

الآيات في سورة الصافات:

قال تعالى في سورة الصافات، الآيات 139 ـ 148:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

النبي الرسول:

وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وقد اشتملت هذه الآية المباركة التي لا تزيد على أربع كلمات، على عدة تأكيدات لترسيخ رسولية يونس «عليه السلام».

وهذه التأكيدات هي:

التأكيد بكلمة: «إنَّ» المشددة التي هي بمثابة تأكيد مضاعف..

التأكيد: باللام، التي هي اللام المزحلقة.

التأكيد بالجملة الإسمية..

فيرد هنا الأسئلة التالية:

لماذا يريد الله سبحانه تأكيد رسولية يونس «عليه السلام»؟!

ولماذا لم يصفه بالنبوة منفردة، أو منضمة إلى الرسولية؟!

وما الفرق بين النبي والرسول؟!

ونجيب:

أولاً: في الرواية عن الإمام الباقر «عليه السلام»: أن الرسول هو الذي يأتيه جبرائيل ويراه، ويكلِّمه.. أما النبي، فهو الذي يؤتى في النوم، كما قال إبراهيم «عليه السلام» لولده: ﴿**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ**﴾[1]..

والمحدَّث: هو الذي يسمع كلام المَلَك من غير أن يراه، ومن غير أن يأتيه في النوم[2].

والرسول: هو المرسل من قبل الله تعالى إلى الناس.. قال سبحانه: ﴿**إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[3]..

وفي آية أخرى: ﴿**رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي**﴾[1].

---

(1) الآية 102 من سورة الصافات.

(2) راجع: بحار الأنوار ج11 ص32 ـ 60.

(3) الآية 16 من سورة الشعراء.

(1) الآيتان 61 ـ 62 و 67 ـ 68 من سورة الأعراف.

وعلى الرسول أن يؤدي إلى الناس ما أرسل إليه..

ثانياً: لا ريب في أن النبي يخبر عن الله، وينبئ عنه، فإن أرسله الله إلى قوم صار رسولاً. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**﴾(1).

وقال سبحانه: ﴿**وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ**﴾(2)..

ثالثاً: إن الرسول هو نبي قد حمَّله الله تعالى مسؤولية تجاه بعض الشرائح البشرية: بأن يبلِّغهم رسالته، ويدبر أمورهم، ويعمل على إقناعهم بالإيمان، وقبول الهداية الإلهية..

فكل رسول نبي بهذا المعنى، لأنه يبلغ عن الله، وله مسؤولية من قبل الله أيضاً.. وليس كل نبي رسولاً.. وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ**﴾(3)..

ويحتاج الرسول إلى معجزات، ووسائل، وطاقات، وقدرات تمكِّنه من التصرفات المختلفة، التي تفرض مهمته الكبرى القيام بها، وتصرفاته، وأقواله، وحالاته، وصفاته، وأخلاقه، وسياساته، وأساليبه تؤثِّر على دعوته، وعلى علاقاته بالناس، وعلى ارتباط الناس به، وعلى نظرة الناس للدين، وأهل الدين.

رابعاً: وما جرى ليونس «عليه السلام» مع قومه كان من موقع رسوليته، فلا بد من الحديث عنها، وهو يغني عن الحديث عن النبوة.

لأن يونس كان من المرسلين، وأي اختلال يأتي من قِبله «عليه السلام»،

---

(1) الآية 45 من سورة الأحزاب.

(2) الآية 6 من سورة الزخرف.

(3) الآية 52 من سورة الحج.

سوف يؤثِّر على اعتقاد البشر كلهم، في الدين، وفي الأنبياء، وعلى مجمل علاقاتهم بهم، ونظرتهم إليهم.. فكان لا بد من صيانة مقام الرسولية فيه، وبيان بطلان ما أشاعوه عن يونس «عليه السلام»، ونسبوه إليه زوراً وبهتاناً.

وإذا تلاشت الشبهات حول الرسول، وتهاوت.. فإن ذلك يوجب صيانة الرسولية والنبوة معاً.. كما أن إهماله، وإفساح المجال لتوسعه وانتشاره يحدث خطراً أعظم وأشد على الدين كله، وعلى مسيرة البشر، وعلاقتها بالرسل، كما قلنا.

أباق يونس ×:

ثم قال تعالى عن يونس «عليه السلام» في سورة الصافات: ﴿**إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**﴾.

وكلمة أبق المذكورة في هذه الآية، قد أسيئَ فهمها، وأغرق بعض الناس في توصيف يونس «عليه السلام» بالهروب، والفرار، ربما لأن الأباق أكثر ما يستعمل في هروب العبد من سيده..

ويبدو: أن بعض الناس أرادوا تطبيق هذه التعابير بحرفيتها، زعماً منهم: أن يونس لم يكن عبداً لقومه، ولم يكن أحد منهم سيداً له، ليكون هو عبداً له.. بل هو عبد لله سبحانه، والله تعالى سيده على نحو الحقيقة.. فيكون أباقه وهروبه من الله، لا من قومه..

وهذا ـ بنظرهم ـ يؤكد: أن يونس «عليه السلام» كان مذنباً وعاصياً، بل ومصراً على ذنبه..

ونجيب:

أولاً: إن جميع الناس يعصون الله، ويهربون من عقوبة الله تعالى لهم.. فلماذا لم يرد وصف أحد منهم بالأباق؟!

ثانياً: من الذي قال: إنه تعالى قد وصف يونس بالأباق، على معنى أنه تعالى هو الذي يعتبره آبقاً؟!

ولماذا لا يكون وصفه بذلك على سبيل حكاية نظرة قومه إليه، فإنهم كانوا يريدون قتله، ويرون أن لهم سلطة عليه، ومن حقهم أن يعاقبوه، وأن يلاحقوه؟! فإذا فارقهم ولم يقدروا عليه، اعتبروه آبقاً.. أي أنهم يدَّعون لأنفسهم حقوقاً كحقوق السادة بالنسبة لعبيدهم.. تماماً كما كان فرعون يتعامل مع بني إسرائيل.

ثالثاً: إن يونس «عليه السلام» كان نبياً مرسلاً، ومؤمناً بالله، وواقفاً على عظمته وجلاله، وعارفاً بأنه تعالى لا يفوته شيء، وأنه العالم بالخفيات، القادر على جميع الكائنات..

وقد صرحت الآية: بأن يونس قد ﴿**أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**﴾.. فلا يعقل أن يكون قد فعل ذلك، لأنه كان يظن أن هذا يخفيه عن الله، أو لأنه يريد أن يلتجئ إلى من هو أقوى منه سبحانه، ليحميه.. والعياذ بالله عن سخف القول، وعوار الكلم.

أو لأنه يريد الوصول إلى مكان لا يقدر الله تعالى على الوصول إليه..

وبذلك يتمكن من الإفلات منه..

فإن ذلك كله لا يرضاه عاقل، ولا يمكن أن ينسب إلى مؤمن، فكيف بالرسول؟!

ولو حصل ذلك ليونس، فعلينا أن نشك في عقله «عليه السلام»، وفي

صلاحيته لأدنى عمل يوكل إليه، مهما كان بسيطاً وساذجاً، وغير ذي قيمة.

بل يسري الشك والإشكال إلى الذات الإلهية ـ والعياذ بالله ـ.. إذ يستحيل فهم سبب اختيار الله لإنسان كهذا لمقام الرسولية، وقيادة أمة بأسرها.

مع أنه تعالى يصفه: بأنه «عليه السلام» من المرسلين، ويؤكد ذلك بعدة توكيدات، ليدل على كمال يونس «عليه السلام»، وأهليته للمهمات الجسام، وعلى حكمته وعلمه، وعلى رسوخ قدمه في المعرفة بالله، وبمخلوقاته..

بل إن أي إنسان مهما كان ساذجاً يعلم بأن الله عليم بكل شيء، وقادر على كل شيء، ولا يمكن أن يهرب منه أحد، ومعرفة أي عاقل بهاتين الصفتين تجعلانه ييأس من أن يتمكن من الإفلات منه، حتى لو ركب ألف سفينة، أو جاب البحار، والبراري، والقفار..

رابعاً: فُسِّر الأباق في اللغة: بأنه الذهاب بلا خوف، ولا كدٍّ، ولا عملٍ.. والآبق: هو من استخفى، ثم هرب.

وفسِّر الأباق في الشرع: بأنه فرار العبد من مولاه.

ومعنى هذا: أن الأباق لا يختص بالمملوك الذي فرَّ من مولاه، وإنما هو مجرد المفارقة التي ليس فيها خوف ولا كد ولا عمل.. وهو ذهاب فيه تخفيف وسهولة، سواء حصل من مملوك، أو من غيره.. وليس فيه معنى الهروب، أو الخوف، أو التخفي.. ولا يحتاج إلى وجود سيد..

وعلى المعنى الثاني يكون فيه الاستخفاء والهروب.. سواء هرب المملوك من سيده، أو من عدو آخر.

أما الأباق بالمعنى الشرعي، فهو نتيجة خوف المملوك من مولاه، بهدف

التخلص من يد ذلك المولى، وهو يفرّ مستخفياً وخائفاً منه، ويريد أن يصل إلى مكانٍ لا تصل إليه يده، أو لا يصل إليه علمه.

وقد يقال: إن الآية منسجمة مع هذا المعنى.. فإن قوله تعالى: ﴿**إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**﴾ ليس فيه أن أباق يونس كان فراراً من شيء ما.

وإذا كان الحديث عن نبي مرسل، ومعصوم، فهو قرينة على إرادة هذا المعنى الصحيح، والمناسب لحال هذا الرسول.. فإن كونه كذلك، يكفي لأن يكون قرينة على هذا المعنى الذي ليس فيه محذور دون ما عداه.

وإذا فسرنا الأباق أيضاً ـ كما تقدم ـ: بأنه ذهاب مع خوف، بهدف التخلص من طالب يريد أن يوصل إليه الأذى.. فلماذا لا يكون يونس قد هرب من قومه، لأنهم كانوا يريدون أن يوصلوا إليه الأذى، لأنهم يرونه مذنباً، ويرون أن لهم الحق في معاقبته؟! فقد فرق جماعتهم، وجاءهم بدين جديد، تماماً كما جرى لمهاجري الحبشة، فقد ادَّعى عمرو بن العاص ـ في مقام تبريره لملاحقة المسلمين المهاجرين للحبشة ـ: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد فرق جماعة قريش، وسفه أحلامهم، وقطع أرحامهم.

فلا ضير في أباق يونس من قومه، وفراره منهم على خوف ووجل، أو خوفاً من العذاب الذي كان يتوقع أن ينزل عليهم.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسله بمفارقة قومهم حين أراد أن ينزل العذاب عليهم كما جرى لقوم لوط «صلوات الله وسلامه عليه، وعلى نبينا وآله».

فكلمة أبق على هذين الوجهين ليس فيها إشكال.

وحتى على الوجه الثالث، وهو: أن يكون الأباق بمعنى مملوك هرب

من مولاه، فإن قومه يرون أن لهم حقاً عليه، وأنه قد أساء إليهم، ويريدون أن ينزلوا العقاب به.

فظهر أنه على جميع التقادير لا ينبغي أن نفسر هذه الكلمة بمعنى يوجب الإساءة إلى نبي من أنبياء الله بهذا النحو الذي توهمه هؤلاء الناس وحاولوا أن يطعنوا فيه بعصمة هذا النبي المجاهد «صلوات الله وسلامه عليه، وعلى نبينا وآله».

بل هناك من فسر الأباق بالفزع.. أي أن يونس «عليه السلام» فَزِعَ إلى الفلك[1]، ولجأ إليه.. ونحن نرجِّح هذا المعنى، لأن الأباق هو نتيجة الشعور بالحاجة إلى ملجأ ليرتاح إليه، بعد أن أصبح قومه ينظرون إليه نظرة عدائية، لأنه دعا الله أن ينزل العذاب عليهم، وقد استجاب الله تعالى دعاءه.

ولأجل ذلك صرحت الآية: بأنه قد فزع إلى الفلك.. ولم تشر إلى أن أباقه كان من سيده.. فالتعدية بكلمة «إلى» دلت على أن الهدف: هو بيان حاجته إلى المكان.. والسفينة يمكن أن تكون هي ذلك المكان الذي يأمن فيه من لحاق قومه به.. فهي تدل على وجود فزع وحاجة إلى الأمن.. ولم تُرِد بيان أنه عبد، وأن له سيداً، وأنه هرب منه على سبيل العصيان والتمرد.

ووصف الفلك بـ ﴿**الْمَشْحُونِ**﴾ يدل على أنه ممتلئ بالناس، وبأمتعتهم. مما يعني: أنه بصدد المغادرة والإبحار.. فإن كان قومه يلاحقونه، فإن ملاحقتهم له سوف تنتهي عند ساحل هذا البحر، ولن يتمكنوا من ركوبه، إلا بعد أن

---

(1) تفسير غريب القرآن للشهيد زيد بن علي بن الحسين، المستشهد سنة 121هـ ص345.

تتهيأ أسباب إبحار مركب آخر، يتخذ نفس الاتجاه، ويقصد نفس المكان الذي يقصده مركب يونس..

وقد لا يتيسر ذلك بنحو يتحقق به غرضهم.

يونس × والقرعة:

1 ـ ثم قال تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾..

والدحض: الزلق والسقوط.. وهو هنا بمعنى: الغلبة.

والمساهمة هنا: هي اللجوء إلى إجالة السهام التي كتبت عليها أسماء من في السفينة، لكي يحددوا بالقرعة من يريدون إلقاءه في البحر.

وإذا كانوا جميعاً لا يحب أحد منهم أن يكون هو الذي يرمى في البحر، ويحيل الأمر إلى غيره، فهذا يدل على أنه «عليه السلام» قد قارع وقاوم أصحاب السفينة، ليمنعهم من اختياره، من خلال القرعة، ولكن القرعة خرجت بغير ما كان يريد ويحب.. ودحضت وأبطلت حجته التي توسل بها، لمنعهم من هذا الأمر.

فتلخص: أن الآية تشير إلى أن يونس «عليه السلام» لم يكن هو الطالب، ولا الراغب بإسلام نفسه لهم، لكي يلقوه في البحر، وذلك بقرينتن:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾ الدالة على أنه سعى لدفع الأمر عن نفسه بواسطة القرعة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾.. أي من المغلوبين، فقد خرجت القرعة على خلاف ما يحب.

2 ـ وهنا سؤالان يحتاجان إلى الإجابة، وهو أنه تعالى قال: ﴿**فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ**﴾.. فلماذا أقحم كلمة «كان» في الآية، مع أنه كان يمكن أن يقول: «فَدُحِضَ»؟!

ولماذا جاء بصيغة الجمع، فقال: ﴿**مِنَ الْمُدْحَضِينَ**﴾، مع أن أحداً غيره لم يُدْحَض، ولم يغلب.. إذ خرجت القرعة باسمه دون سائر أصحاب السفينة؟!

ونجيب:

أولاً: بالنسبة للسؤال الثاني نقول:

إن هذا ناظر إلى أن ما تنتجه القرعة عادةً، من حيث الرغبة فيه وعدمها تابع لطبيعة مضمونها، وللهدف من إجرائها.. فإن كان مضمونها مكروهاً، فيكون مطلوب المساهمين بها هو دفع المكروه عن أنفسهم، فمن خرجت القرعة عليه كان مغلوباً.

وإن كان مضمون القرعة مرغوباً ومطلوباً، فيكون هدف المساهمين هو الحصول عليه، والاستئثار به لأنفسهم دون غيرهم.. وفي هذه الحالة يكون من خرجت القرعة باسمه غالباً.

وإذا كانت السهام قد أجيلت ثلاث مرات، وقد خرج اسم يونس «عليه السلام» دون سواه فيها جميعاً، فإنه سيصبح مسلوب الحجة أمامهم بنحو أقوى، وسيزيد ذلك من إصرارهم على إلقائه، ونجاة أنفسهم..

ومن المعلوم: أن خروج القرعة ثلاث مرات متوالية باسم واحد من بين جماعة من الناس أمر نادر، وغير متوقع عادة، وهو يلفت النظر، وتحتفظ به الذاكرة بسبب هذه الندرة، وتضمه إلى لائحة النوادر، ويتأكد الاهتمام به،

وحضوره في الذهن إذا كان على أمر بالغ الأهمية، وكونه مصيرياً بالنسبة إلى المتقارعين.

وإذا كان الأمر مرتبطاً بنبي من الأنبياء، ومن المرسلين كيونس «عليه السلام»، فإن خروج اسمه ثلاث مرات متوالية سيكون أغرب وأعجب، وموجباً للتحيُّر الشديد.. وسينضمُّ إلى لائحة الأعاجيب التي خلدتها القرعة في أذهان الأمم لغرابتها وفرادتها.. بل سيعد على رأس هذه اللائحة..

ثانياً: بالنسة للسؤال الأول عن سبب إقحام كلمة «كان» نقول:

إن خصوصية يونس «عليه السلام» من حيث كونه نبياً مرسلاً ـ ثُبِّتت رسوليته بالمعجزة ـ تفرض على الناس توقع التدخل الإلهي في مثل هذا الأمر، لمصلحة حفظ حياة هذا الرسول، من منطلق الحفاظ على الغاية التي دعت لاختياره لهذا الأمر العظيم..

فإذا كانت القرعة قد أجريت ثلاث مرات، وخرجت في جميعها باسم يونس «عليه السلام»، ولم يحصل أي تدخل إلهي لمصلحة يونس، عُلِمَ أن ما سيحصل ليونس ليس بدرجة يحتاج معها إلى التدخل الإلهي في نفس القرعة.. بل هناك اعتبارات أخرى تقضي بعدم حصول ذلك، وإبقاء الأمر جارياً على طبيعته بحسب الظاهر، ليكون هذا المورد من موارد إيكال يونس إلى نفسه، لأنه تعالى يريد بهذا الإيكال: أن يرفع من مقام يونس، وأن ينقله من مرحلة إلى مرحلة أعظم وأجلّ، من خلال إنجائه وحفظ حياته بالمعجزة، وجعل بطن الحوت مقراً له يرى فيه عظمة الله وآياته، وعظيم قدرته وجلاله.. لينزهه أعظم تنزيه، وينال بذلك أعظم الخيرات والبركات، ويتفرغ فيه لإخلاص

العبادة له تعالى، وحده لا شريك له، حيث لا يرى غيره تعالى.. ولا يشعر بسواه، وبذلك يدرك طرفاً من العظمة والقدرة الإلهية، من خلال الحس، ليصل إلى درجة الطمأنينة القلبية، التي طلبها إبراهيم «عليه السلام» من ربه: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1].

ودحض حجة يونس «عليه السلام» مقابل أصحاب السفينة لم يحصل بفعلهم وإرادتهم، بل حصل بأمر خارج عن اختيارهم، لأن الله تعالى وكله إلى نفسه طرفة عين، لم يشمله فيها اللطف الإلهي في خصوص هذه الحالة، من أجل التأسيس لما هو أجلّ، وعلى الفضل والكرامة أدلّ..

وإن كان أصحاب السفينة ينسبون هذا الأمر إلى قرعتهم.. فكلمة «كان» تشير إلى أن الأمر الذي حصل قد جاء تلقائياً، وبأسباب خارجة في مؤدياتها عن الاختيار ـ كالقرعة ـ بنظر أصحاب السفينة، وحجب اللطف الإلهي في باطن الأمر.

ولو أنه تعالى قال: «فساهم فَدُحِضَ»، لفُهِم منه: أن دحضه كان بفعل أصحاب السفينة، ونتيجة اختيارهم، أو احتمل ذلك على الأقل، ولفاتت هذه الإشارات التي ألمحنا إلى طرف منها.

وقد أشير إلى ذلك في قول النبي «صلى الله عليه وآله» لأم سلمة: «يا أم سلمة، وما يؤمنني؟! وإنما وكل الله يونس بن متى إلى نفسه طرفة عين، فكان منه ما كان»[1].

---

(1) الآية 260 من سورة البقرة.

(1) تقدمت مصادر هذه الرواية في فصل: يونس في روايات الشيعة، الرواية رقم [10].

فكأنه «صلى الله عليه وآله» يريد: أن ينال أعلى درجات القرب والزلفى عند الله، ويصل إلى أقصى غاية في المعرفة بالله، وفي توحيده، وتنزيهه بمبادراته «عليه السلام»، وبجهده، من دون حاجة إلى ابتلائه بأمر عظيم، يمهِّد له السبيل لنيل هذه المقامات أو بعض منها، ويمنحه الطمأنينة القلبية، من خلال المعرفة الحسية، كما جرى ليونس «عليه السلام».

ولأجل ذلك كان نبينا الأعظم «صلى الله عليه وآله» أفضل من يونس «عليه السلام»، بل أفضل الأنبياء والمرسلين، وأكرمهم على الله، وأقربهم زلفى لديه سبحانه وتعالى.

وَهُوَ مُلِيمٌ:

ثم قال تعالى: ﴿**فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ**﴾.. وقد فسروا كلمة مُلِيمٌ بالملام، ثم قالوا: لو لم يكن يونس «عليه السلام» قد فعل ما يوجب اللوم، لما قال له الله تعالى: إنه مُلِيمٌ.

وهذا يؤكد على أن ثمة مخالفة صدرت من يونس، اختلفوا فيها، هل هي معصية؟! أو فعل خلاف الأولى؟! أو ترك مستحب؟! أو فرار وهرب؟! أو أنه فارق قومه من دون أن يأذن الله له؟! أو غير ذلك..

ولكننا نقول:

إن هذا كله غير سديد، ونوضح ذلك كما يلي:

إن كلمة «مُلِيمٌ» هي في الأصل من «لام»، ثم زيدت عليها همزة التعدية، فصارت «ألام».. يعني: جعله يلوم غيره، فمن هم الذين يلومهم يونس، أو يريد

يونس أن يكونوا مُلامين يا ترى؟!

إنه «عليه السلام» لا يلوم ربه، ولا يدعو أحداً إلى لومه سبحانه، لأنه لم **يزل يعلم**: بأن الله تعالى هو الخالق له، والمنعم والمتفضل عليه، بل هو يلوم قومه على كفرهم، وجحودهم للحق، وطغيانهم، وتمردهم على الله، حتى استحقوا نزول العذاب عليهم. ويريد من غيره أن يلوموهم على ذلك..

ولتوضيح ما نرمي إليه نقول:

1 ـ إن اللوم بالكلام هو التقريع على فعل أمر قد جاء على خلاف رغبة اللائم، يقال: لامه لوماً، فهو مَليم ـ بفتح الميم ـ ومُلام أي من وقع عليه اللوم.

2 ـ ويقال أيضاً: «ألامه» بمعنى لامه، فهو مُليم ـ بضم الميم ـ.

3 ـ ويقال أيضاً: «ألامه»: أي أتى ما لا يلام عليه، فهو مُليم ـ بضم الميم أيضاً ـ[1]، وملام..

وعلى هذا المعنى الأخير، لا دلالة في الآية على أن يونس «عليه السلام» قد فعل ما يستحق العذل واللوم..

وعلى المعنى الثاني أيضاً كذلك، بل هو يدل على أن يونس «عليه السلام» حين ابتلعه الحوت كان يلوم غيره..

وذلك الغير.. إما هم قومه الذين أبوا أن يؤمنوا..

أو هم ركاب السفينة، الذين ألقوه في البحر ظلماً وعدواناً منهم.

أو هما معاً ـ أعني قومه، ومعهم ركاب السفينة ـ.

---

(1) راجع أقرب الموارد ج2 «مادة لوم».

فظهر: أن الفرق بين فتح الميم، فتكون مأخوذة من «لام»، وضمها فتكون مأخوذة من «ألام».. ـ ظهر أن هذا ـ عائد إلى الفرق في المعنى، فتصير مُليم ـ بضم الميم ـ دالة على براءة يونس.. وهي هنا بالضم لا بالفتح..

ولو سلمنا جدلاً وجود احتمال آخر، فإنه لا يكفي لاتهام نبي ورسول بما هو معصوم عنه.. بل تكون عصمته دليلاً على انتفاء ذلك الاحتمال.

بقي أن نشير إلى أن قوله تعالى: ﴿**فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ**﴾ يتضمن:

1 ـ أن كلمة ﴿**فَالْتَقَمَهُ**﴾ تشير:

أولاً: إلى سرعة التقام الحوت له[1]، وفاء التفريع تشهد على ذلك.

ثانياً: إن الالتقام هو وضع اللقمة في الفم، مقدمة للبلع، وكأنه يشير إلى أن هذا الوضع قد راعى بقاء يونس «عليه السلام» على حال السلامة من أن يناله مكروه خلال هذه العملية..

ولذا قالوا: اللقم هو وضع اللقمة خاصة دون البلع[1]. وهذا يشي ببقائه على حال السلامة حين التقامه.

ثالثاً: فيه إشارة أيضاً: إلى احتمال حصول التمهل في البلع، فقد قالوا: التقمه ابتلعه، أو في مهلة[2].

2 ـ جاءت كلمة «الحوت» في الآية معرَّفة بلام التعريف. ولم يقل: التقمه

---

(1) أقرب الموارد ج2 مادة لقم.

(1) المصدر السابق.

(2) راجع المصدر السابق.

حوت.. ربما لأنه حوت خاص، مأمور من قبل الله تعالى بالتقام يونس، ضمن آلية معينة، لا تتضمن إيذاءً، فلا تهشم له عظماً، ولا تقطع وصلاً.

وهذه معجزة أخرى من الله سبحانه في يونس «عليه السلام»، لاسيما وأنهم يقولون: إن بلعوم الحوت في غاية الضيق، وقد مرّ منه يونس إلى بطنه دون أن يصيبه شيء.

ولأجل ذلك ذكر الله تعالى الحوت بـ «ال» العهدية، ولو قال: التقمه حوت، لدلَّت هذه الكلمة على جنس الحوت، مع أنه حوت اختاره الله تعالى لهذه المهمة، وأمره بأوامره، وزجره بزواجره، ففعل كما أراده الله تعالى منه..

وقد يبقيه الله تعالى حياً إلى يوم يبعثون، كرامة له، كما ربما يستفيده البعض من قوله: ﴿**لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾.. وإن كانت دلالتها على ذلك غير ظاهرة، لاحتمال أن يكون المقصود: أن الله تعالى سوف يطيل عمر الحوت إذا كان القرار هو إبقاء يونس «عليه السلام» في بطنه..

إلا أن يقال: قد تُشعر الآية: بأن الحوت سوف يبقى إلى يوم البعث.. سواء أكان يونس في بطنه، أم لم يكن..

ولكن هذا يبقى مجرد احتمال ضعيف، لا يمكن الاعتماد عليه..

ولذلك قال بعضهم: إن يونس لو لم يكن من المسبحين لبقي في بطن الحوت بعنوان أنه قبر.

3 ـ قد يفهم من اختيار كلمة «حوت» هو الإلماح إلى أن ذلك الحوت كان يدور حول السفينة بحسب حركة يونس «عليه السلام»، فيها، فإذا كان في مقدمها جاءه الحوت من جهة المقدمة، فإذا ذهب يونس إلى مؤخرة السفينة،

استدار الحوت إلى تلك الجهة[1].

وقد جاء في كتب اللغة «مادة حوت» أنه يقال: حات الطائر، أو الوحش على الشيء: حام حوله. والمحاوتة: المراوغة. وظل يُحَاوِتُنِي بخُدَعِهِ: أي يُدَاوِرُنِي كما يفعل الحوت في الماء[2]..

فالرعاية الإلهية ليونس «عليه السلام» قد بدأت من لحظة إلقائهم إياه في البحر.. وظهرت المعجزات الإلهية المتعددة فيه، وكان أعظمها حين استقراره في بطنه، كما سنرى.

يونس من المسبحين:

ثم قال سبحانه: ﴿**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾.

وقد اعتبر بعضهم: أن الله قد نجَّا يونس «عليه السلام» حين سبح الله تعالى في بطن الحوت.

وهذا وإن كان منسجماً مع قوله تعالى: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ**﴾، وذلك بعد أن ﴿**نَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ**﴾.. لكن يجب التوقف أمام الرعاية الإلهية الإعجازية ليونس «عليه السلام» قبل هذا النداء أيضاً، ومن لحظة إلقائه في البحر، فهي مراحل عديدة، تميزت كلها بالتدخل الإعجازي، كما بيَّناه آنفاً..

---

(1) تفسير الآلوسي ج23 ص143 وراجع: المحرر الوجيز ج4 ص485 وتفسير البحر المحيط ج7 ص359 ونور الثقلين ج4 ص 435.

(2) راجع: أقرب الموارد ج1 وغيره.

فلا يصح قولهم: إن نجاته قد بدأت بعد النداء، لأنه اعترف بالظلم، ونزَّه الله تعالى، ووحَّده، ومجَّده، لأن الحفظ والرعاية قد سبق نداء يونس واعترافه هذا.. ولولا هذه الرعاية لم يصل إلى مرحلة النداء والتسبيح أصلاً.

فاعتراف يونس «عليه السلام» بالظلم هو كاعتراف موسى «عليه السلام» به حين قتل عدو الله وعدوه، واستغفر الله..

فإن المقصود: أنه حَمَّل نفسه مسؤولية عدم القيام، بعبادة الله كما يليق بعظمته وجلاله سبحانه، فهو يقول لله: أنا مقصر، وعملي لا يقوم بشكرك يا رب، لأن عبادتي لا تناسب فضلك، فساعدني تفضلاً منك، لأتمكن من إنجاز مهماتي، وأدفع أعدائي وأعداءك عن نفسي.

لأجل ذلك نرى: أنه حين أصبح يونس «عليه السلام» في بطن الحوت، وواجه الظلمات الثلاث: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، ولم يعد هناك ما يشغله عن ربه، تفرَّغ لعبادته وحده لا شريك له، واعترف بتقصيره.

ومهما يكن من أمر، فإن كلمة ﴿**فَلَوْلَا**﴾ حرف امتناع لوجود.. أي أن وجود تسبيحه «عليه السلام» قد منع من لبثه «عليه السلام» في بطن الحوت إلى يوم البعث.

وقوله: ﴿**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ**﴾، ولم يقل: «فلولا أنه سبح ربه» أو «فلولا تسبيحه»، ربما ليدل على أن تسبيحه «عليه السلام» لم يحدث كردة فعل في لحظة شدة، حين أصبح في بطن الحوت، بل هو مصاحب له، ثابت معه وفيه ثبوت الصفة لموصوفها، منذ عقل أن له رباً، وهو دائم ومستمر.

وذلك لأن كلمة مسبِّح اسم فاعل، واسم الفاعل يدل على دوام ثبوت

الصفة لموصوفها، لأن التسبيح أصبح صفة له، وإنما يصبح كذلك إذا تكرر واستمر.

وهذا يعني: أن وصف يونس بالمسبِّح ليس لمجرد قوله: ﴿**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ**﴾، بل لأنه كان دائم التسبيح.. ولم يكن من الغافلين عن ربه.

وبذلك يعلم: أن كلمة ﴿**كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ**﴾ لا تعني أنه قد سبح في السابق ثم ترك، بل تعني أنه من المنزهين لربهم في جميع أدوار حياتهم، فلا يمكن أن يعتقد أن ربَّه عاجز عن الوصول إليه، أو أنه لا يعرف مكانه، أو يمكن أن يخفي نفسه عنه، لأن اعتقاد ذلك ينافي تنزيهه، وتسبيحه الدائم.

ثم قال تعالى: ﴿**لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾، فقد علمنا: أن يونس «عليه السلام» حين استقر في بطن الحوت بادر إلى التوحيد، ليجعله أساساً للتنزيه، فإن توحده تعالى، وتفرده دلّ على أنه منزه عن العجز والنقص، والجهل، والحاجة، والضعف، والمحدودية، عن كونه يحتاج إلى مكان وزمان، وما إلى ذلك.

ويلاحظ هنا أمران:

الأول: أن يونس «عليه السلام» ـ بالرغم من الشدة العظيمة التي هو فيها ـ لم يدع الله سبحانه بالخلاص، ولا أظهر تبرماً، ولا عتباً، ولا طلب الرأفة به والرحمة له، ولا أي شيء من هذا القبيل، بل هو بعد إعلانه بالتوحيد، انتقل إلى التنزيه مباشرة، مع أن من يواجه شدة ـ ولاسيما بهذا الحجم ـ يبادر تلقائياً إلى الدعاء، وطلب النجاة منها، وطلب الرحمة والاستغاثة ونحوها.

ولعل سبب ذلك: هو أن توحيده الخالص، هو الذي اقتضى تنزيهه تعالى.

ومؤدى هذا التنزيه: هو معرفته «عليه السلام» بأن سبب ما جرى عليه:

هو أنه كان هو المقصِّر، الظالم لنفسه، لأنه لم يعبد الله العبادة التي تليق بعظمته وجلاله ونعمه سبحانه، التي يعرفها يونس أكثر من غيره.. لا لأجل أنه تعالى لم يرحم يونس، أو لأنه لم يعرف بما يجري عليه وما يقاسيه، أو لأنه عجز عن تخليصه مما هو فيه، أو لأنه غفل عنه، أو لعدم مبالاته به، وما إلى ذلك..

الثاني: أن يونس «عليه السلام» حين استقر في بطن الحوت سالماً من أي أذى، لا بد أن يدرك: أن هذه السلامة لا يمكن إلا أن تكون نتيجة تدخل إلهي إعجازي، وهو نفسه يدعوه إلى الجهر بتوحيده، وبتنزيهه عن كل عيب أو نقص، أو جهل، أو حاجة.

لأن صيرورته في بطنه تعني: أن روحه سوف تزهق خلال لحظات، وسوف تتحطم عظامه، وينصهر لحمه، وتتقطع أوصاله.. ولكن رحمة الله شملته، وقدرته تعالى حفظته، وتسبيحه وتنزيهه المستمر صانه ثم أنجاه.

وهذه كرامة إلهية له، ولولا هذه الكرامة والمحبة والرضا الإلهي ﴿**لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾.

وقد يستفاد من هذه الآية: احتمال أن يبقى هذا الحوت على ما هو عليه (حياً أو ميتاً) إلى يوم القيامة. أي طيلة آلاف السنين..

وهذا أمر غير معهود في مخلوقات الله، فإنها تتلاشى بمرور الأزمان والدهور.. على أن عظام الحوت لو بقيت، فإن ما عداها من لحم ودم، وغير ذلك سوف يتلاشى ويذهب، فلا تبقى هناك بطن للحوت لكي يلبث يونس (حياً أو ميتاً) في داخلها.. فبقاء الحوت وبطنه على حال السلامة، ويونس في داخلها، إنما يكون ـ لو كان ـ على سبيل التصرف الإلهي الإعجازي أيضاً..

الفصل الثالث

النبذ بالعراء في سورة الصافات..

النبذ بالعراء:

ثم تأتي المرحلة الأخيرة من قصة يونس، وهي مرحلة نبذ الحوت له «عليه السلام» في العراء، فقد قال تعالى عنها في سورة الصافات: ﴿**فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ**﴾[1].

وهذا من الموارد التي تذرع بها بعض الناس لتوجيه التهمة ليونس، ويمكن بيان ما اعتمدوا عليه واستندوا إليه كما يلي:

إن النبذ: هو طرح الشيء بعيداً.. أضاف بعضهم قوله: بلا مبالاة. فهل يمكن الاستدلال بهذين الأمرين ـ وهما النبذ والإبعاد، وعدم المبالاة ـ على أن يونس «عليه السلام» قد فعل ما يوجب حصولهما له بصورة مهينة؟! لأنه خالف الأولى، أو هرب، أو عصى، أو ترك قومه بلا إذن من ربه، أو نحو ذلك.

ولاسيما إذا أضيف إلى هذا أمر ثالث، وهو: أن الطرح له كان بالعراء، حيث لا شجر يظله، ولا سقف يحميه، ولا حسيس ولا أنيس ولا جليس.

ثم يضاف إليه أمر رابع، وهو: أن المطروح كان في مشكلة عظيمة، وغمٍّ

---

(1) الآيتان 145 و146 من سورة الصافات.

وأذى، وكان مريضاً وسقيماً أيضاً، كما صرحت به الآية.. فطرحه بالعراء يدل على أنه تعالى لم يرحم سقمه، ولا ضعفه، ولا مرضه، ولم يراع حاله.. ألا يدل ذلك كله، على أن يونس «عليه السلام» كان لا يستحق الرحمة والشفقة والرفق، لأنه فعل أمراً لم يكن ينبغي له أن يفعله؟!

وألا يعدّ هذا الطرح، بهذه المواصفات، نقلاً ليونس من بلاء إلى بلاء، ومن غمٍّ إلى غمٍّ؟! لاسيما وأن النبذ بالعراء يعرِّض حياته للخطر الأكيد، ولاسيما إذا كان مريضاً.

ونجيب:

بأن الأمر على عكس ذلك تماماً، فإن هذه الأمور تؤكِّد عظمة يونس «عليه السلام» عند الله، وتظهر مزيد رعايته ومحبته له..

وتوضيح ذلك يكون ضمن النقاط التالية:

1 ـ قال تعالى: ﴿نَبَذْنَاهُ﴾، ولم يقل: نبذه الحوت.

2 ـ كما أنه تعالى تحدَّث بصيغة جمع المتكلمين، ولم يقل: نبذته، ليدل على مقام العظمة والجلال، والألوهية.. وفي هذا تكريم ليونس «عليه السلام».

3 ـ إنه تعالى نبذه بالعراء، ولم ينبذه في البحر، لأن نبذه في البحر قد يؤدي إلى هلاكه، لاسيما إذا كان سقيماً، كما أن نبذه في البحر لا يعطي النتيجة المتوخاة من النبذ، وهذا يدل على أن نبذه بالعراء تدبير إلهي، له مصالح كبيرة، كما سنرى.

4 ـ إن نبذه بالعراء، كان بأمر من الله.. وهذا الأمر هو الذي سوَّغ نسبة النبذ إلى الله.

5 ـ إن إيصال الحوت ليونس «عليه السلام» إلى العراء يحتاج إلى أن يصل الحوت إلى الشاطئ، وقد ينبغي له أن يخرج من الماء بمقدار ما، ثم ينبذه.

وهذا يحتاج إلى عمق كاف للماء، وهو عادة غير متوفر عند الشاطئ، لأنه لو قذفه إلى مكان بعيد، فإن مظنة أن لا يحتمل جسم يونس «عليه السلام» الصدمة تبقى قائمة.

6 ـ إن الله تعالى يريد ليونس «عليه السلام» أن يُنبذ من بطن الحوت بعيداً عن الناس، ليظهر المعجزة فيه والكرامة والمحبة الإلهية له، لأنه لو نبذه بينهم لبادروا إلى معونته، وإصلاح أمره، ولا يظهر فضله على سائر الناس، ولكن نبذه بالعراء هو الذي جعله بحاجة إلى الظل، وإلى الغذاء والماء، وإلى الحفظ من الهوام والذباب وغيره.. لأن العراء لا ظل فيه، ولا سقف، ولا شجر، ولا وسائل عيش، من غذاء، أو لباس، أو دواء، أو غيره.

وهذا كله يؤكد حاجته إلى صنع معجزة يراها الناس، ويدركون إعجازها.

وتتأكد هذه الحاجة، إذا كان سقيماً، غير قادر على الوصول إلى مقاصده، أو الدفع عن نفسه، أو تلبية حاجاته..

كما أن نبذه بالعراء، وهو بحالة السقم يقطع الطريق على أية شبهة ترمي إلى التشكيك في ابتلاع الحوت له.. وزعم أنه تخلص منه بنحو أو بآخر، فحالته التي نبذ عليها تشهد: بأن الحوت قد ابتلعه بالفعل أيضاً.

إنبات شجرة اليقطين:

وهنا تظهر أهمية إنبات الشجرة على يونس «عليه السلام»، وكان يجب أن تكون من يقطين، لكي لا يتوهم متوهم: أن الشجرة قد تكون في صحراء

قاحلة أيضاً.. فلا يكون في نبذه عندها خصوصية له.

فكان لا بد أن تكون شجرة تجسد الإعجاز الإلهي، فكان اليقطين الذي هو القرع، وهو نبات يحتاج إلى الماء، سرعان ما ييبس ويتلاشى، وهو نبات لا ساق ولا جذع له، فكان هو الشجرة التي تجسد الإعجاز، وتظهر الكرامة والمحبة، والرعاية الإلهية ليونس «عليه السلام»، من خلال خلق شجرة مع جذع، يمكنها من الارتفاع به عن يونس، وتظليله..

فإن لليقطين ورقاً عريضاً وواسعاً يمنحه الظل..

وهو أيضاً يبعد الذباب عنه.. ويرطب الهواء له، كما أنه يحمل له الغذاء المطلوب..

فأظهر الله المعجزة في اليقطين الذي أنبته فوق يونس «عليه السلام» مباشرة، وجعل له ساقاً ليصبح شجرة، وجعله غذاءً ليونس «عليه السلام»، لأنه لو أنبت شجرة أخرى، كالجوز، أو اللوز مثلاً، فيحتمل: أن تكون قد نبتت في ذلك المكان منذ زمن طويل.. والصدفة هي التي جمعت بينها وبين يونس «عليه السلام». ويضيع المعنى الذي يريد الله للناس أن يدركوه.

وهذا هو الظاهر المتوافق مع ظاهر القرآن..

أما القول: بأن شجرة يونس هي شجرة التين، أو الموز، فكان يتغطى بورقه، ويستظل بأغصانه، ويفطر على ثماره[1]..

---

(1) كنز الدقائق (تفسير) ج11 ص184 وراجع: أنوار التنزيل للبيضاوي ج2 ص300 والكشاف ج4 ص62.

وكذا قول ابن عباس: إن اليقطين هو كل شجرة لها ورق أبيض[1].

فلم نجد له مبرراً.

فالتين لا يقال له: يقطين، وكذلك الموز.

على أننا لم نفهم المراد من قوله: «ويستظل بأغصانه»، فلماذا لا يستظل بورقه، كما يتغطى به، وهل للموز أغصان منفصلة عن ورقه تكون صالحة للاستظلال بها؟!

أما تفسير اليقطين بأنه كل شجرة لها ورق أبيض، فلم نفهم المراد منه، لأننا لا نعرف شجراً بهذه الصفة، لا واحدة، ولا أكثر.

سقيم!! لماذا؟!:

إن الله سبحانه، وإن أمر الحوت بأن لا يكسر ليونس «عليه السلام» عظماً، ولا يقطع له وصلاً.. ولكن ذلك لا يعني بقاء يونس «عليه السلام» سالماً.. حتى إذا امتثل الحوت ما أمره الله تعالى به، فإن الحياة في بطنه لن تكون سهلة، بل سيختنق يونس في بطنه وسيذوب شحمه ولحمه، وينتهي الأمر بهلاكه أيضاً، حتى مع حفظ عظامه من الكسر، وأوصاله من التلف، فيحتاج إلى رعاية إلهية وحفظ أسنى وأعلى..

وهذا ما حصل إلى حد كبير، وبقي من هذه الآثار ما ترك ضعفاً ومرضاً يحتاج الإبلال منه إلى وقت ورعاية، لكي يتم ما رسمه الله تعالى ليونس من إعلاء شأنه، وإظهار كرامته.

---

(1) البيان والتبين ج8 ص530.

وكان لهذا السقم وظيفة مهمة، ودور فاعل في إظهار فضل وكرامة يونس «عليه السلام»، لأن الله تعالى يريد لهذا المرض أن يمنع يونس من الحركة، ويسلبه القدرة على الانتقال من مكان إلى مكان، ليعرف قومه بوجوده، وبأنه تخلص من الحوت الذي نبذه في مكان قاحل، لا حياة ولا ظلّ فيه.. وليروا عجزه عن الحركة، وعن تهيئة الظل لنفسه، وعن الحصول على حاجاته، وعن دفع الهوام ـ حتى الذباب ـ عن نفسه..

وليروا إنساناً عاش برهة في بطن الحوت، في ظلمات بعضها فوق بعض. ثم قذفه الحوت بعد مدة بالعراء، وهو مريض..

وليروا كيف جعل الله تعالى له اليقطين شجرة ترتفع فوقه وتظلله، ويأكل منها، وتمنع عنه الحشرات التي تربكه، ويتضايق من سقوطها عليه، وتقلق راحته.

فهذا السقم كان ضرورياً، لا لأجل أن يكون عقوبة له، بل لأجل إظهار معجزة الله تعالى فيه.. بعد أن يصادفه، وهو بهذه الحالة الصعبة من يخبر الناس بوجوده، فيهرعون إليه، ويتعرفون عليه، ويرون معجزات الله تعالى فيه.

فظهر بذلك كله: أنه تعالى لم يكل يونس «عليه السلام» إلى الأسباب الطبيعية، بل تجاوزها وتولى هو تعالى حفظه، وتكريمه، ورعايته، وإشهار فضله.

ولو قذف الحوت يونس «عليه السلام»، وكان سليماً معافى، فإن الاتهام له بأنه عوقب على بعض ما فعله بابتلاع الحوت له سيبقى قائماً، وتبقى نظرة بعض الناس له بعين النقص والملامة ثابتة لا تتغير.

وقد يدَّعي بعض الناس: أنه تخلص من الحوت بجدِّه وجهده، فلا إعجاز له، بل هو إنجاز، وبطولة شخصية.

وسيأتي: أن هذا من جملة النعم الكبرى على يونس «عليه السلام»، حيث أظهر الله تعالى به براءته بصورة عفوية وتلقائية، وقاطعة وإعجازية.. وأكد على ابتلاع الحوت إياه، كما تقدم.

كلمة «مِنْ» لماذا؟!:

وهنا سؤال يقول: لماذا قال: ﴿**شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ**﴾. ولم يقل: شجرة يقطين بدون كلمة «من»؟!

ونجيب:

أولاً: إن كلمة «يقطين» اسم جنس، تطلق على القرع والبطيخ، وغير ذلك مما يكون له ورق عريض، ويمتد على وجه الأرض، ولا ساق له..

والقرع هو أحد هذه الأنواع، وهو تعالى إنما أنبت على يونس «عليه السلام» نوعاً بعينه، وهو القرع، كما في أغلب الروايات.. ولم ينبت عليه أشجاراً من أنواع متعددة..

فالاقتصار على ذكر الجنس ـ وهو كلمة شجرة ـ بدون كلمة هنا، يجعل الكلام موغلاً في الإبهام..

وهذا هو ما لا يريده الله تعالى هنا..

ثانياً: كلمة «من» هنا يقال لها: «من النشوية»، فهي من قبيل قوله تعالى: ﴿**وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ**﴾[1].

وقال تعالى: ﴿**فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ**

(1) الآية 45 من سورة النور.

﴿مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾[1].

فإن هاتين الآيتين تبينان النشآت المختلفة للإنسان.. فالتراب منشأ للنطفة، والنطفة منشأ العلقة.. وهكذا..

وهنا يريد أن يقول: إن اليقطين هو منشأ هذه الشجرة التي وجدت بالمعجزة، وقد حوَّل النبات الذي لا أصل ولا ساق له إلى شجرة لها جذع وفروع، وورق، وثمر هو نفس ورق وثمر القرع..

فليس لأحد أن يظن أنها شجرة غريبة، وخلق جديد، ومن نوع غير معروف ولا مألوف.. فبيَّن تعالى: أن منشأ خلقها هو اليقطين، وفيها نفس خصائصه، وفوائده، وطعمه، ولونه وورقه وثمره وفروعه، وغير ذلك.

ويشهد لما نقول: ما روي، من أن النبي «صلى الله عليه وآله» سئل: إنك لتحب القرع يا رسول الله!!

قال: أجل، هي شجرة أخي يونس[2].

فالقرع إذن هو الشجرة التي أظلت يونس «عليه السلام»، ولأن النبي «صلى الله عليه وآله» كان يحب يونس، فهو يحب الشجرة التي نفعته بما فيها من غذاء، وبما لها من ظل، ومن قدرة على إبعاد الحشرات التي تؤذيه عنه..

---

(1) الآية 5 من سورة الحج.

(2) عمدة القاري ج16 ص3 وتخريج الأحاديث والآثار ج3 ص180 و 181 والفتح السماوي ج3 ص957 وزبدة التفاسير ج5 ص580 وكنز الدقائق (تفسير) ج11 ص184 وراجع: مكارم الأخلاق ص30 وبحار الأنوار ج16 ص245 وج63 ص73 ومستدرك سفينة البحار ج8 ص505.

ويحبها.. لأن المعجزة تجسدت فيها، ودلت على براءة يونس وطهارته، وحب الله له، وعنايته به.

وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون:

ثم قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[1].

فقد تضمنت هاتان الآيتان أموراً، نبيِّن ما تيسر لنا منها على النحو التالي:

إلى من أرسل يونس ×:

وهنا سؤال يقول: هل المئة ألف التي تتحدث عنهم هذه الآية هم نفس الذين ذكرتهم الآية التي في سورة يونس، وقالت: إن إيمانهم لما رأوا العذاب قد نفعهم، أم أنهم قوم آخرون أرسل الله تعالى يونس «عليه السلام» إليهم بعد أن لفظه الحوت؟!

الجواب:

الظاهر: أن هؤلاء هم نفس أولئك، فإن الآية في سورة يونس هي التالية: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[2]، **فهي تقول**: إنه لم يحصل لقرية أن آمنت فنفعها إيمانها، إلا ما حصل لقوم يونس «عليه السلام»، فإنهم آمنوا، فكشف الله تعالى عنهم عذاب الخزي ومتعهم إلى حين..

---

(1) الآية 147 و 148 من سورة الصافات.

(2) الآية 98 من سورة يونس.

وهذا هو نفس المضمون الذي ورد في سورة الصافات، حيث قال تعالى: إن القوم الذين أرسل إليهم يونس ﴿آمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[1].

عودة يونس إلى قومه:

وقد عرفنا: أن قوم يونس «عليه السلام» لما رأوا العذاب.. أقرّوا بدين الله، وبصحة ما جاءهم به يونس، بعد أن كانوا قد جحدوا وعاندوا..

ولكن إيمانهم بنبوة يونس لا يعني أنهم قد عرفوا تفاصيل ما جاءهم به، فكانوا بحاجة إليه «عليه السلام» ليعلِّمهم الشريعة، وأحكامها، وعقائدها، وأخلاقها، وتفاصيل حقائقها.. فأرسله الله إليهم مرة أخرى بعد خروجه من بطن الحوت.

إنزال العذاب لماذا؟!:

وقد يتساءل المرء عن العذاب الذي يُنزله الله تعالى على الأقوام الذين يرفضون الإيمان، ولا ينزله على قوم قد آمنت ثلة منهم، فإذا آمن من المئة ألف، عشرة آلاف، أو خمسة، أو ثلاثة آلاف، أو حتى مئات من الأشخاص على سبيل المثال، فإن العذاب لا ينزل عليهم.

ولكن إذا آمن منهم رجلان، أو عشرة، أو بمقدار ما حملته سفينة نوح «عليه السلام».. إضافة إلى ما حمله فيها من حيوانات، وطيور وأمتعة. فإن العذاب ينزل على الباقين في خارجها، بعد أمر من آمن بالخروج من بين الكافرين..

كما جرى بالنسبة لقوم يونس، حيث لم يؤمن منهم سوى رجلين، وبالنسبة

---

(1) الآية 148 من سورة الصافات.

لقوم صالح، وقوم لوط، وهود، وغيرهم، فإذا لم يخرج المؤمن منها، وآثر البقاء، فإن العذاب النازل يشمله.

ونجيب:

بأن نزول العذاب على هؤلاء وأولئك هو السنَّة المنطلقة من الرحمة الإلهية بالناس، من أجل تيسير سبل الهداية لهم، واستئصال الجانب المريض منهم رحمة بالباقين، لأن إجماع أمة بأسرها، أو قوم بقضهم وقضيضهم على الكفر والتكذيب فيه صد عن سبيل الله، وخداع للناس، لاسيما السذَّج والبسطاء، لأن الاجتماع على الكفر والتكذيب يضع علامات استفهام على الأنبياء، ويثير الشبهة حول ما جاؤوا به، ويجعل إقامة الحجة على غيرهم أمراً في غاية الصعوبة، إن لم يكن قد صار متعذراً.. وبذلك ينسد باب الهداية أو يكاد..

ويصبح الكفر والجحود بالحق أمراً مبرراً، ويرى الناس أنفسهم معذورين فيه، وفي مناوأتهم، فإنزال العذاب على الجاحدين فيه يعد تصديقاً للأنبياء، ونصرة للحق، وتيسيراً للإيمان، لأنه يزيل حالة الخداع للآخرين، ويفرض على الناس التدبر والتفكر فيما يُعرض عليهم..

كما أن اختيار ثلة من أولئك القوم للإيمان يفرض عدم إنزال العذاب على الباقين، ولو أصروا على الكفر والجحود.

ولعل من أسباب ذلك:

أولاً: حفظ وصيانة الثلة التي آمنت.

ثانياً: يَسقط احتمال أن تكون الأكثرية الكافرة قد اكتشفت بطلان دعوى النبوة، ويَقوى احتمال أن يكون سبب الجحود وعدم الإيمان استكبار بعضهم،

أو الرغبة في بعض المنافع، أو لأنهم همج رعاع ينعقون مع كل ناعق، أو حبّاً بالسلامة، وتحاشياً لغضب أسيادهم وأمرائهم وأغنيائهم، وأقويائهم، ومن يعز عليهم، أو اتِّباعاً، أو تعصباً، أو تقليداً للآباء والأجداد، أو لغير ذلك من أسباب.

وانتعاش هذه الاحتمالات، وزوال الاتفاق على الرفض، لا يبقي أمام الناس أي مانع يمنعهم من النظر والتأمل في دلائل الأنبياء «عليهم السلام»، وقبول الحق منهم بعد وضوحه لهم.. ويكون إيمان فئة ـ ولو كانت قليلة ـ حجة على الباقين من الجاحدين.

أرسلناه إلى مئة ألف:

ثم قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[1]. فلماذا لم يقل: أرسلناه إلى قومه، وعدل عنه إلى ذكر عددهم؟!

مع أنه في سورة يونس ذكر القرية، التي كان فيها قوم يونس، فلماذا اختلف التعبير بين سورة يونس، وسورة الصافات؟!

ونجيب:

بأن ما يهم الأنبياء هو إيمان الأشخاص، فرداً فرداً، ويعتبرون كل فرد مسؤولاً عن هذا الإيمان، ومحاسباً عليه، فيعاقب إن أخلَّ به، ويثاب بمقدار ما يتوغل فيه، ويتفاعل معه، ويقوم بفروضه..

وقد أرسل الله تعالى يونس «عليه السلام» إلى قومه لكي يقنع أفرادهم بالإيمان.

---

(1) الآية 147 من سورة الصافات.

وهذا يدل على صعوبة المهمة، وعظم المسؤولية التي كُلِّف بها يونس «عليه السلام». ولذا تكلم هنا بلغة الأعداد.

ولكن حين يكذبون أنبياءهم، ويتعاضدون على إبطال دين الله، وتجمع كلمتهم على ذلك، فقد أصبحوا كتلة واحدة، وبمجموعهم يشكلون خطراً على الدين والإيمان.

وحينئذٍ ينزل عليهم العذاب كمجموعة، لكي يزيل هذه الكتلة من طريق الإيمان وأهله رفقاً بغيرهم، وحفظاً لحق الغير بالهداية، حتى لا تكون هذه الكتلة صادَّة عن سبيل الله..

ولو تصدعت هذه الكتلة بإيمان فئة منها ولو بمقدار مئات، أو بضعة آلاف، وزال خطرها على هداية الأمم.. فلا تبقى حاجة لنزول العذاب على من لم يؤمن منهم..

أَوْ يَزِيدُونَ:

وقد قال تعالى: ﴿**أَوْ يَزِيدُونَ**﴾، ولم يقل: بل يزيدون، ولا قال: بل أزيد، أو أكثر..

ولعل سبب ذلك: أنه تعالى في هذه الآية لا يريد أن يخبر عن عددهم الثابت والدقيق..

كما أنه لا يريد إظهار عدم معرفته الدقيقة بعدد قوم يونس، فإنه تعالى أعلم العالمين، وأحسب الحاسبين، فلا يطلق كلامه على سبيل التقريب أو التخمين.

بل هو يريد أن يقول: إنهم مئة ألف.. وهم في حالة تزايد مستمر، لأن كلمة يزيدون فعل مضارع، يدل على الحال المتصل بالاستقبال، وأن حدوث

الفعل متواصل مستمر وغير منقطع.. من خلال تواصل ولاداتهم، وازدياد أعدادهم تبعاً لازديادهم المستمر، وهو إنما يستمر فيما إذا اختاروا الإيمان، لأنهم يبقون حينئذ على قيد الحياة.

ولكنهم إن أصروا على الإجماع على الكفر والجحود للحق، فإن العذاب سوف ينزل عليهم، وسوف يزول هذا التزايد المستمر وينقطع بذلك.

ولأجل ذلك قال: ﴿أَوْ﴾، فإنه يريد أن يشير إلى أن ازديادهم وعدمه مرهون بإيمانهم وعدمه.

الفصل الرابع

يونس × في سورة القلم..

قال تعالى مخاطباً نبيه الأكرم «صلى الله عليه وآله»:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

أوهام وأباطيل:

1 ـ وقد فسروا هذه الآيات المباركة أيضاً: بما فيه ذم ليونس «عليه السلام»، لأنه ـ بزعمهم ـ فعل أمراً غير مرضي، ولا مطلوب، أو لأنه فعل خلاف الأولى، فاحتاج يونس إلى التوبة، حين عاقبه الله تعالى بالتقام الحوت له، ثم نَبْذِهِ إياه بالعراء..

وشاهدهم على ذلك: هو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾.. المشعر: بأنه قد فعل ما فيه خطأ، ولا يليق بمثله فعله، فعوقب، فتاب، فقبل الله تعالى توبته، ونجَّاه مما هو فيه، فيقول الله لنبيه: لا تفعل مثل ما فعل يونس، فإن يونس قد أخطأ.

---

(1) الآية 48 ـ 50 من سورة القلم.

2 ـ وقالوا أيضاً: إن قوله تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ يدل على أنه «عليه السلام» كان مستحقاً للذم.

ونقول في الجواب:

ألف: لا ينبغي المسارعة لاتهام رسول عظيم الشأن مثل يونس أرسله الله إلى أمة من الناس تزيد على مئة ألف، بأنه فعل خلاف الصواب، أو خلاف الأَوْلى، أو عصى فيه، أو هرب، وما إلى ذلك..

ب: إن ذكر يونس «عليه السلام» في سورة القلم قد جاء بعد آيات تضمنت لوماً وتهديداً إلهيّاً لقوم رسول الله «صلى الله عليه وآله»، لتكذيبهم إياه، وإيذائهم له، فقد قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ..﴾[1].

أي: اصبر على ما تلاقيه من هؤلاء القوم من أذى، وعناد، وجرأة على مقام العزة الإلهية، وعلى الحرمات وعلى الحق والدين.. وما شنوه من حروب، وسفك دماء، وما أشاعوه من افتراءات وأكاذيب..

وهذا يشبه ما جرى ليونس «عليه السلام» مع قومه الذين كذَّبوه، وآذوه، وبقي عشرات السنين يدعوهم، ويقدِّم لهم الدلائل والشواهد.. ولكن لا حياة لمن تنادي.. ثم لم يؤمن منهم سوى رجلين.. ولذا قال تعالى لنبيه: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ..﴾.

---

(1) الآية 44 ـ 48 من سورة القلم.

ج: إنه تعالى يريد أن يظهر مدى صبر وثبات يونس «عليه السلام» توطئة للطلب من نبينا: أن لا يقتصر على التشبه به في الصبر والتحمل، بل عليه أن يفوقه فيه.. لأن ذلك يبلغه مقامات أعلى وأغلى، وأجلّ وأعظم، لم يستطع يونس أن يصل إليها، بالرغم من عظيم صبره، وشدة تحمله..

ويدل على ذلك: أن الحوت قد التقمه وجرى عليه ما جرى، ولم يصدر منه إلا الجهر بالتوحيد والتنزيه، والاعتراف بالتقصير، وبظلم النفس.

فظهر: أن هذه الآيات لا تريد أن تنهى النبي عن التشبه بيونس، لأن يونس «عليه السلام» قد عصى أو خالف الأوْلى، أو غاضب ربه، أو هرب، أو ترك قومه دون أن يستأذن من الله تعالى، أو نحو ذلك..

بل تريد أن تقول للنبي «صلى الله عليه وآله»: عليك أن لا تكتفي بالتشبه به في صبره وتحمُّله، بحيث يكون بلوغ مرتبته هو أقصى طموحك، بل عليك أن تزيد عليه، لتصبح أعلى مقاماً، وأشد تحمُّلاً، وأعظم صبراً منه، فلديك طاقات وقدرات واستعدادت أعلى من طاقات يونس وإمكاناته واستعداداته.

بل طاقاتك تفوق طاقات أي نبي ورسول آخر.. ولذا كان نبينا الأعظم «صلى الله عليه وآله» أفضل منهم، وهو شاهد عليهم.. وهم وإن كانوا كلهم معصومين عن الذنب، ومنزهين عن كل نقص أو عيب.. لكن درجات صلابة العصمة فيهم تتفاوت، وكذلك درجات الصبر والتحمل..

ومثال ذلك: أن الخشب أضعف من الألمنيوم، وهذا أضعف من الحديد، والحديد أضعف من الفولاذ، وهذا أيضاً أضعف من الألماس، ولكن جميع هذه الألواح قادرة على حمل كوب ماء، وإن اختلفت درجات صلابة اللوح الحامل.

وهذا هو حال العصمة، وغيرها من القدرات والطاقات، والملكات.. فهناك من يحمل مئة كيلو، وهناك من يحمل أكثر، أو أقل من ذلك بدرجات متفاوتة.

ولذلك اختلفت تكاليف الأشخاص تبعاً لتفاوت وسعهم وطاقاتهم. وعلى هذا الأساس جاء قوله تعالى: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾[1].

ونحن نعلم: أن الطاقات والقدرات تزداد قوة وصلابة وتجذراً بالعمل والممارسة، فكلما زاد صبر النبي على المكاره وزاد الأذى له ارتفع مقامه، وزادت منح الله تعالى وعطاياه، وبركاته، ونعمه، ومثوباته له، وتدرج في درجات القرب، كما أن أعمال الشر للجاحدين تزيدهم خبثاً وجحوداً ولجاجة.

إصبر لحكم ربك:

وإذا أردنا أن نتابع الآيات المباركة في بعض ما ترمي إليه، وتدل عليه، فإننا نقول:

قال تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**﴾[2]، فقد دلت هذه الفقرة على أن الله تعالى قد قضى في قوم رسول الله «صلى الله عليه وآله» بقضاء يحتاج إلى درجة عالية من التحمل والصبر من النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله».

والظاهر: أن هذا الحكم هو أنه لا يريد أن ينزل عليهم العذاب..

أولاً: لأن فيهم من قد آمن، وإن كان يتعرض للتعذيب والأذى على أيدي

---

(1) الآية 286 من سورة البقرة.

(2) الآية 48 من سورة القلم.

فراعنتهم وسفهائهم، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1].

ثانياً: إن رسول الله «صلى الله عليه وآله» فيهم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2]. ويكفي ذلك في دفع العذاب عن الجماعة.

ولكن عدم إنزال العذاب عليهم في الدنيا لا يعني إعفاءهم منه، بل سوف يكون بانتظارهم في الآخرة، كما أنه سيتحول إلى مشكلات ومنغصات، أو هموم لهم في الدنيا نفسها.

كما أن صبر الرسول ومن معه.. سيكون ثمنه المثوبات، والتوفيقات، والرعاية لهم، والألطاف الإلهية بهم في الدنيا والآخرة.

فقول الله تعالى لنبيِّه «صلى الله عليه وآله»: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يراد منه: أن عليك أن لا تطلب من الله تعالى أن يُنزل العذاب على قومك، لأن قدرتك على التحمل والصبر، تفوق قدرة يونس «عليه السلام»، الذي بقي عشرات السنين يدعو قومه فلا يستجيبون له، ويُظهر لهم البراهين والشواهد، فلا يسمعون..

وقومك، وإن كانوا يعاملونك بنفس الطريقة التي كان قوم يونس يعاملونه بها.. بل حال قوم رسول الله معه كان أشد.. ولذا قال «صلى الله عليه وآله»: ما

---

(1) الآية 25 من سورة الفتح.
(2) الآية 33 من سورة الأنفال.

أوذي نبي ما أوذيت[1].. وهم بالرغم من كل حروبهم التي باءت بالفشل، وبالرغم من كل مساعيهم لإطفاء نور الله، وبالرغم من كل الدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة، والمعجزات والكرامات، وجميع أنواع الهدايات، بالرغم من ذلك كله، نجد أنهم حين لم يجدوا مناصاً أظهروا الإسلام. ولم يكونوا صادقين فيه، فقد قال علي «عليه السلام»: «أما والله ما أسلموا، ولكن استسلموا»[2].

وقال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾[1].

وقال: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾[2].

وقال: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى

---

(1) راجع: كنوز الحقائق (بهامش الجامع الصغير) ج2 ص82 و 83 والجامع الصغير ج2 ص144 و (ط دار الفكر) ج2 ص488 ومناقب آل أبي طالب ج3 ص42 وبحار الأنوار ج39 ص56 ومستدرك سفينة البحار ج1 ص 102 وكشف الغمة ج3 ص346 وشرح منهاج الكرامة ص265 وراجع: جواهر المطالب ج2 ص320 وكشف الخفاء ج2 ص180 وتهذيب الكمال ج25 ص314 وكنز العمال ج3 ص130 الحديث رقم: (5817 و 5818) وج11 ص461 الحديث رقم: (32160 و 32161) وشرح أصول الكافي ج9 ص202 وميزان الحكمة ج1 ص67 وج4 ص3227 و 3228 وفتح الباري ج7 ص126 وفيض القدير ج5 ص550.

(2) صفين للمنقري ص215 وشرح الأخبار ج2 ص531 و 532 وبحار الأنوار ج32 ص325 وج33 ص186 ونهج السعادة ج2 ص148 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج4 ص31.

(1) الآية 14 من سورة الحجرات.

(2) الآية 97 من سورة التوبة.

النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[1].

ومع ذلك كله، فإن المطلوب هو المزيد من الصبر، ليصل إلى الحد الذي لا يقاس به صبر يونس «عليه السلام».

ما قال: لا تكن كيونس:

وهنا سؤال يحتاج إلى إجابة، وهو: أنه تعالى قال: ﴿**وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ**﴾، ولم يقل: «لا تكن كيونس». مع أنه قد ذكر يونس في سورتي الصافات ويونس وغيرهما.

ويجاب:

بأن يونس «عليه السلام» كان نبياً رسولاً، له مكانة مميزة بين الرسل الذين واجهوا في عملهم الرسالي أعظم المحن والشدائد والأهوال، فكان صابراً محتسباً، قوياً في إيمانه، حريصاً على دينه، وعلى علاقته بربه.

فبالإضافة إلى ما واجهه مع قومه من مشكلات، وما تحمَّله من أذى، وما بذله من جهد لهدايتهم طيلة عشرات السنين.. لم يظفر منهم بغير رجلين اثنين، كما في بعض الروايات المتقدمة، ثم كانت محنة ابتلاع الحوت إياه، وأصبح في ظلمات ثلاث.. ولكنه لم يجزع، ولم يتأفف، ولم يخلع رداء الصبر، بل هو لم يطلب الخلاص والنجاة، بل انصرف إلى مناجاة ربه، واعتبرها فرصة له، يتفرغ فيها لعبادته سبحانه، ومناجاته، وتنزيهه، والاعتراف بتقصيره في حقه تبارك وتعالى.

فأراد الله تعالى في سورة القلم، وهو يحض أفضل رسله على التحمل والصبر،

---

(1) الآية 101 من سورة التوبة.

بما يفوق هذا الصبر اليونسي: أن يذكر له يونس من خلال ذكر الحدث الذروة الذي تعرض له هذا النبي العظيم، وواجهه بيقين، وصبر ورضى، ومعرفة، كما أوضحناه لكي يقول له: إنك تفوقه في قدراتك وفي درجات تحملك، وفي معرفتك، ويقينك، وصبرك. فليكن همّك منصرفاً إلى ذلك.

حُكْمِ رَبِّكَ:

1 ـ وقد قال تعالى للنبي الكريم «صلى الله عليه وآله»: ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**﴾، ولم يقل: لحكم الله، لأن الهدف من هذا الصبر تربوي، يراد به إظهار عظمة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، والتنويه بقدراته، ومؤهلاته، ورسوخ ملكات الفضل فيه.. والربوبية تقتضي التكامل والتنمية في المربوب.

2 ـ إن نتيجة هذا الصبر: هو أن ينال «صلى الله عليه وآله» من مقامات الكرامة والزلفى عند الله ما هو أغلى وأعلى، وأتم وأشرف وأسنى.. وهو يأتي من موقع الربوبية الهادفة إلى تنمية شخص المربوب، ورفع شأنه في نفسه.

3 ـ وقد جاء بكاف الخطاب مع كلمة «ربّ»، فقال: ﴿**رَبِّكَ**﴾، ولم يقل: «لحكم الرب»، ربما لأنه يريد أن يخص شخص الرسول بهذه المقامات، لأنه المستحق لها، والقادر على بلوغها.

4 ـ وقد قال تعالى: ﴿**لِحُكْمِ رَبِّكَ**﴾ ولم يقل: «على حكم ربك»، ربما لأن كلمة «على» تفيد في هذا السياق: أن نفس الحكم الرباني ثقيل وصعب، ويحتاج إلى درجات من الصبر، لا يبلغها أشرف وأفضل الخلق، مع أن الله سبحانه يقول: ﴿**يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾[1]، فهل من المعقول أن

(1) الآية 185 من سورة البقرة.

يثقل في حكمه وقضائه على أفضل رسله إلى هذا الحد؟! ولماذا لا يخفف عنه، ويُيَسِّر له الأمور؟!

والحقيقة هي: أنه تعالى يريد أن يكون صبر النبي لصالح بلوغ الغاية الإلهية التي فرضت هذا القضاء بدفع العذاب عن مستحقيه، رفقاً بهم، وإقامة للعدل فيهم، وتيسيراً للإيمان على سائر الأقوام والأمم..

وهذا هو حلم الأنبياء «عليهم السلام»، وهو الذي يؤنسهم، ويرضيهم، وهو من أعظم النعم عليهم.

إذ نادى ربه وهو مكظوم:

1 ـ ثم قال تعالى: ﴿**إِذْ نَادَى**﴾، فلماذا لم يقل: «إذ قال»، فإن النداء إنما يكون من البعيد للبعيد.. ألا يؤيد هذا التعبير قول من قال: إن يونس «عليه السلام» قد عصى، وأنه هرب، وعوقب بابتلاع الحوت له؟!

والشاهد على ذلك: أن الآية القرآنية هنا تؤكد على أنه بعيد عن الله، ولأجل ذلك يناديه من بعيد، مع أن الله تعالى يقول: ﴿**وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾[1].

ويجاب:

بأن يونس «عليه السلام» هو الذي اعتبر نفسه بعيداً عن الله سبحانه، لا لأجل أنه عصاه، أو لأنه فعل خلاف الأوْلى، أو هرب منه، أو غاضبه، بل لأجل أنه كان ظالماً لنفسه بتقصيره.. لعدم عبادته بالنحو الذي يليق

---

(1) الآية 16 من سورة ق.

بعظمته وجلاله، أو بما يؤدي حق شكره على نعمه الجليلة والجميلة.

2 ـ المكظوم هو المكروب، الذي حبس نَفَسَه، وأُخِذَ بكظمه، ولكنه «عليه السلام» لا يطلب من الله أن يزيل كربه.. بل ينصرف إلى ما هو أعلى وأجل من ذلك، وهو الإقرار بالوحدانية، والتنزيه، والتقصير عن القيام بحق الله، وأداء شكره..

تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ:

ثم قال تعالى: ﴿**لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ**﴾، فهنا أمور يحسن لفت النظر إليها لكي يتضح ما نرمي إلى إيضاحه، وهي كما يلي:

1 ـ قال تعالى: ﴿**لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ**﴾.. فكلمة «لولا» حرف امتناع لوجود. أي أن ذمه من الآخرين قد امتنع، لوجود التدارك بالنعمة الإلهية.

2 ـ وقد قال تعالى: ﴿**تَدَارَكَهُ**﴾. ولم يقل: «تداركته نعمة».. والتدارك يدل على أن إدراكه بالنعمة وحلّ مشكلاته بها قد تكرر في حالات عديدة.

ولو قال: «أدركته نعمة»، لفهم منه: أنها أدركته مرة واحدة، وانتهى الأمر.. مع أن المطلوب: هو بيان أن حال يونس «عليه السلام» كان يحتاج إلى تدارك النعمة له في مواضع عديدة، وبحالات ووسائل مختلفة، فما يحتاج إليه حين ألقي في البحر يختلف عما يحتاج إليه حين أصبح في فم الحوت..

كما أنه يحتاج حين يراد له أن يمر من البلعوم الضيِّق للحوت إلى غير الذي يحتاج إليه حين يصل إلى بطن الحوت، فإنه يحتاج في بطنه إلى الهواء للتنفس، ويحتاج إلى الغذاء للبقاء، وإلى أمور أخرى تمنع من إلحاق الأذى به في مثل هذه الحالات. وحين يلفظه الحوت بالعراء يحتاج لوسائل تبقيه سالماً، لاسيما

مع ملاحظة أنه كان مريضاً.. فقد احتاج إلى الظل والطعام والشراب، ومنع الذباب وغيره من الحشرات من الوصول إليه، وهلم جرًّا..

فكل مورد مما ذكرناه.. وسواه، يحتاج إلى نوع مناسب له من النعم، وبذلك يظهر المراد من التعبير بالتدارك، الذي يعني ملاحقة النعم له، لكي تضيف إليه من القوة والوسائل، والعناصر ما يجعله قادراً على مواجهة الحاجات المتكررة والمتلاحقة..

فهذا التدارك يدل على أن يونس «عليه السلام» لم يكن مذنباً، بل كان مظلوماً من قومه، ثم من أهل السفينة، ثم من أهل الأهواء وقاصري النظر الذين يلقون الكلام على عواهنه ولا يتدبرون ولا يحققون.

ثم إن يونس «عليه السلام» حين نُبذ بالعراء يحتاج إلى من يدفع عنه، وينصره، ويحفظه، ويسدده، فهو ضعيف، سقيم، يحتاج للمعونة.

3 ـ هنا سؤال آخر، عن سبب عدم إضافة تاء التأنيث إلى التدارك، ليتناسب مع النعمة التي هي مؤنثة لفظاً، فقال تعالى: ﴿**تَدَارَكَهُ**﴾. ولم يقل: «تداركته».

ويجاب:

بأن الفعل حين يسند إلى فاعل، وينصب الضمير مفعولاً به، ثم يتقدم مفعوله على فاعله، فإن ذلك يشير إلى أن محور الاهتمام هو ضمير المفعول، فيوافقه الفعل في التأنيث والتذكير، ليشير إلى هذه المحورية له..

فموافقة فعل التدارك للمفعول به الذي جذبه إليه، وتخلى عن فاعله ليصبح وحيداً، كأنه تابع، بعد أن كان هو العمدة والمحور. إن هذه الموافقة تصبح مطلوبة في مقام كهذا.

والسبب في ذلك هنا: أن المطلوب: هو حفظ يونس «عليه السلام»، ودفع الأخطار عنه، وأن حفظه هو بالإعجاز الإلهي الدال على عظمته «عليه السلام»، وعلى مزيد قربه من ربه.

لماذا لم يقل: تداركه رحمة؟!:

وقد يجول بخاطر البعض سؤال عن سبب اختيار النعمة لتكون هي منشأ التدارك ليونس «عليه السلام»؟! ولماذا لم يقل: تداركه رحمة من ربه؟! فربما كانت الرحمة هي الأنسب بالأحوال التي يواجهها يونس فهو ضعيف وسقيم، ويحتاج للمعونة، فإنه كان ينتقل من شدة إلى أخرى.. الأمر الذي يثير الشفقة التي تأتي بالرحمة، لكي تغمره، وتخفف عنه، وتدفع عنه الأسواء.

ويجاب:

بأنه لو قال: «تداركه رحمة» لتأكدت مزاعم الذين يعتبرون يونس مذنباً، أو هارباً، أو مخالفاً للأوْلى، أو مستحقاً للعقوبة بابتلاع الحوت له، لأن الضعيف الذي يتعرض للعقوبة، هو الذي يثير الشفقة، ويحتاج للرحمة..

وأثر هذه الرحمة هو مجرد إيقاف العقوبة، ودفع البلاء، ومنع وصول الأذى إلى من يعاني من الأذى، أو يراد صيانته من الانزلاق إلى ما هو أشد وأصعب.

أما النعمة، فهي العطاء الذي يعطيه الله للعبد، مما لا يتمنى غيره أن يعطيه إياه، أو هي ما أنعم به تعالى عليك من رزق، ومال، وغيره.. فالنعمة تفرح وتنعش الروح، وتزداد بها قوة المعطى، وقدراته، وصلابته، وعصمته، وليست مجرد دفع بلاء، ورفع شدة.

والنعمة قد تكون مكافأة على عمل صالح، ويستحق به رفعة المقام، وعلو

الدرجة، وقد تكون عطاءً ابتدائياً بدافع الحب، أو الكرم، أو التفضل، وغير ذلك.

فهذه النعمة التي كانت تلاحق يونس «عليه السلام» في كل اتجاه، لكي تصونه من الآفات، وتزيد من عظمته، وتظهر براءته وطهره، وتكافئه على صبره، وتصلح حاله، وتمنع من أن يلحقه أي ضرر، أو ذم، أو نظرة إليه بعين النقص، وما إلى ذلك.. هي مما أنعم الله به عليه، مما لا يتوقع أن يعطيه إياه أحد..

وإظهار الكرامات ليونس «عليه السلام»، وإحاطته بالمعجزات قد قلب الأمور رأساً على عقب..

فحين نبذ بالعراء، كانت المعجزات والكرامات التي ظهرت له قد عرَّفت الناس ـ كل الناس ـ وإلى يوم القيامة: أن هذا النبذ لرجل عظيم، وبريء من كل عيب ونقص، يحبه الله، ويريد أن يكون أسوة وقدوة للناس.. بل هو نبي مرسل، معصوم، وعالم، وعابد، وتقي، ومن تهم المبطلين بريء.

ولم ينبذ بالعراء رجل متهم بمعصية الله، أو مقصر في شكر الله، أو هارب من الله، أو ما إلى ذلك..

لماذا من ربه؟!:

وقالت الآية: ﴿تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، فلماذا قال «من ربه»، ولم يقل: «نعمة ربه»، أو «نعمة الرب»، أو «نعمة الله»؟!

ويجاب:

أولاً: بأن موقع الربوبية هو الذي يفيض النعم، ويعم الكون والحياة بالرحمات، والألطاف، والتسديدات.. فذكره عز وجل بصفة الربوبية هنا هو المناسب للمقام، والربوبية هي التي تعطي النماء والزيادة، والتكامل، والفضل

والكرامة، وما إلى ذلك..

أما الألوهية، فتناسبها العقوبة على الذنوب، والصفح، والعفو، والإحياء والإماتة، وما إلى ذلك.

ثانياً: إن نِعَم ربه جميلة، وجليلة، ومتنوعة، وكثيرة لا تحصى، وليست نعمة واحدة، ولو قال: «نعمة ربه»، لفهم منه معنى الوحدة.

ثالثاً: بالنسبة لضمير الغائب في كلمة ﴿**رَبِّهِ**﴾، نقول:

إنه تعالى يريد أن تكون هذه النعمة خاصة بيونس «عليه السلام»، فإنها هي التي تناسب حاله، وتحل مشاكله، وترفع مقامه، وتعلي شأنه..

ولو قال: «نعمة الرب» لما فهم منها: الإختصاص بيونس «عليه السلام»، والمناسبة لحاله.

رابعاً: إن كلمة «من» تفيد: أن هذه النعمة عطية ربانية، وكرامة إلهية ليونس «عليه السلام».. وليست أمراً حصل عليه يونس بجهده، أو بأي وجه آخر من الوجوه، ولو بمساعدة هذا أو ذاك، من الإنس، أو من غيرهم.

نعْمَةٌ لا نِعَمٌ:

وقد قال تعالى: ﴿**نِعْمَةٌ**﴾ مع تاء التأنيث ليدل على إفراد النعمة، ربما لأنه لو قال: «نِعَمٌ»، فقد يتوهم: أن المراد: أنها نِعَمٌ دنيوية، كل واحدة منها تحل المشكلة التي تناسبها، مثل اتقاء الشمس، فيونس يحتاج إلى الساتر الذي هو نعمة، فأوجد له شجرة تظلله، وهو يحتاج إلى طعام.. فأنعم عليه بالقرع، ويحتاج إلى دفع الحشرات، والقرع بورقه وخصوصية فيه يدفعها عنه.. فهي نِعَمٌ تقضي له حاجاته..

وتنتهي النعمة بانتهاء مبرر إعطائها في الدنيا، مع أن النعمة التي منحه الله إياها هي من نوع آخر.. أعلى، وأجلّ، وأسنى، وأنقى، وأبقى، وهي: رفعة شأن يونس «عليه السلام»، وبيان فضله، ومقامه عند الله..

فالنعمة هي الكرامة الإلهية، والرعاية الربانية، والتسديدات الغيبية، وهي نعمة واحدة، اقتضت هذه الأمور المختلفة، وهي نعمة باقية لا تحول ولا تزول.

الإجتباء الإلهي ليونس:

ثم قال سبحانه: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

الاجتباء: هو الاختيار والاصطفاء، ولو كان يونس قد عصى، أو هرب، وغاضب، وفعل خلاف الأولى، فاستحق العقاب، فعوقب، ثم نبذ بالعراء وهو سقيم، لم يكن معنى لتفريع الاجتباء والاختيار والاصطفاء له «عليه السلام» على ذلك كله، بل كان يجب أن يحرم، ويهمل، ويجتنب.

فهذا التفريع يدل على أن ما جرى ليونس كان لرفع درجته، ومكافأته ليس على توبته، لأنه لم يذنب، بل على جهده وجهاده، وصبره، وما حققه من إنجازات. إذ لا مكافأة للعاصي والهارب والمغاضب و.. و.. الخ..

وكان هذا الاجتباء من موقع التربية الإلهية له، ورفعة شأنه، وتقريب مقامه..

ولذا قال تعالى: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾، ولم يقل: «اجتباه الله»، ولم يقل: «اجتباه الرب».. لأنه يريد أن يُظْهِر عنايته الربوبية بشخص يونس «عليه السلام»،

---

(1) الآية 50 من سورة القلم.

تقديراً لجهوده، وجهاده، وصبره، وفضله..

جعله من الصالحين:

وقد قال تعالى: ﴿**فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾.

والمراد بالصالح: هو الذي جاء مطابقاً للإرادة الإلهية وأهداف الخلقة، والتربية الربانية، من دون أي اختلال، أو نقص أو زيادة، ولو بمقدار ذرة..

وهو بكل حركاته وسكناته، وكل وجوده منسجم ومتناغم مع حقائق التكوين وهو وأمثاله هم الصالحون، والقادرون على إعمار الكون، وتحقيق الأهداف الإلهية في هذه الحياة.

وهذه أيضاً ـ بالإضافة إلى الاجتباء والتربية الإلهية ـ تبرئة أخرى ليونس «عليه السلام»، لأن الله تعالى لا يجعل العاصي، والهارب، والمغاضب لربه من الصالحين.

ولأن بلوغ هذه المقامات من خلال الرعاية الإلهية، من شأنه أن يثير في نفوس الطامحين والطامعين من أهل الدنيا، النقمة والحسد، ويدفعهم إلى الافتراء وتوجيه الاتهامات الباطلة للمحسود، فقد أشار الله تعالى محذراً من هذا النوع من الناس، فقال: ﴿**وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ**﴾[1].

وذكر تعالى هذه الحالة في مواضع أخرى، فقال: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آَتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آَتَيْنَا آَلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآَتَيْنَاهُمْ**

(1) الآية 51 من سورة القلم.

﴿مُلْكًا عَظِيمًا﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾[2].

(1) الآية 54 من سورة النساء.

(2) الآية 109 من سورة البقرة.

كلمة أخيرة:

وبعد..

فقد كانت تلك نبذة مما يمكن أن يقال في بيان دلالات الآيات القرآنية المباركة على براءة يونس «عليه السلام»، مما يراد نسبته إليه، وقد أخذه بعض الناس من عيون وشلة، موبوءة بسموم، لا نرى أن أهل الكتاب.. ولاسيما من كان يتظاهر بالإسلام منهم كانوا بعيدين عنها.

وهذا بلاء أسهم المسلمون أنفسهم في تعريض أنفسهم له، حين فتحوا الأبواب لأولئك الفاسدين، والمحرفين للكلام عن مواضعه، ممن يسمونهم بالقصاصين، ليحتلوا مساجد المسلمين لنشر ترهاتهم، وأباطيلهم، وإسرائيلياتهم بين السذَّج والبسطاء، بعد أن منع الحكام الحديث عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلا بشهود، ومنعوا من كتابته، ومن العمل بما سنه «صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطاهرين»..

بالإضافة إلى منعهم من السؤال عن معاني القرآن..

وأنزلوا بمن يخالف سياساتهم هذه أشد العقوبات، وساموه الذل والهوان، والاضطهاد، والنفي، والحرمان..

فحرموا بذلك المسلمين من قرآنهم، ومن سنة نبيِّهم، واستعاضوا عن ذلك

بفتاوى الأمراء، وترهات وأباطيل أهل الأهواء.. فإنَّا لله، وإنَّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلى بالله العلي العظيم..

ولا خلاص، ولا مناص من هذه المحنة وأمثالها، إلا بالرجوع للقرآن، وإلى نهج وكلام، وتوجيهات الأئمة الطاهرين، والأخذ منهم وعنهم، امتثالاً لأمر الله ورسوله فيهم، في حديث: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فتمسكوا بهما لا تضلوا، فإن اللطيف الخبير أخبرني وعهد إلي أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض».. وما أكثر الأحاديث التي تؤكد على هذا المعنى، وتصب في هذا الاتجاه..

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، محمد وآله الطيبين الطاهرين..

حرر بتاريخ: الليلة الأولى من شهر رمضان المبارك سنة 1438 هـ.ق.

2017/5/26 م. ش.

عيثا الجبل (عيثا الزط سابقاً) جبل عامل ـ لبنان.

جعفر مرتضى العاملي..

الفهرس

تقديم: 5

حديث مع القارئ: 5

توضيح لا بد منه: 7

الآيات المباركات: 14

القسم الأول: يونس × في الحديث والتاريخ..... 16

الفصل الأول: قصة يونس × في الحديث والتاريخ..... 18

الفصل الثاني: يونس × في روايات الشيعة.. 35

الفصل الثالث: هذه هي شبهاتهم..... 60

بداية: 62

الفرق بين روايات الشيعة، وروايات غيرهم: 62

اختلالات في الروايات: 69

رواية إنكار الولاية:..... 70

من شبهاتهم: 72

خلاصة لقصة يونس ×: 73
القسم الثاني: يونس × في القرآن الكريم.. 76
الفصل الأول: آيات يونس في سورة الأنبياء.. 78
توطئة لتفسير الآيات: 80
في سورة الأنبياء: 81
وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا: 81
لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ: 82
فاء التفريع، لماذا؟!: 83
النداء في الظلمات: 85
الأنبياء لا يظلمون: 88
الإستجابة الإلهية: 90
من يستحق النجاة؟!: 91
الفصل الثاني: آيات يونس في سورة الصافات..... 94
الآيات في سورة الصافات: 96
النبي الرسول: 96
أباق يونس ×: 99
يونس × والقرعة: 104
وَهُوَ مُلِيمٌ: 108
يونس من المسبحين: 113
الفصل الثالث: النبذ بالعراء في سورة الصافات.. 117

النبذ بالعراء: 119

إنبات شجرة اليقطين: 121

سقيم!! لماذا؟! 123

كلمة «مِنْ» لماذا؟!: 125

إلى من أرسل يونس ×: 127

عودة يونس إلى قومه: 128

إنزال العذاب لماذا؟!: 128

أرسلناه إلى مئة ألف: 130

أَوْ يَزِيدُونَ: 131

الفصل الرابع: يونس × في سورة القلم..... 133

أوهام وأباطيل: 135

إصبر لحكم ربك: 138

ما قال: لا تكن كيونس: 141

حُكْمِ رَبِّكَ: 142

إذ نادى ربه وهو مكظوم: 143

تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ: 144

لماذا لم يقل: تداركه رحمة؟!: 146

لماذا من ربه؟!: 148

نعْمَةٌ لا نِعَمٌ: 149
الإجتباء الإلهي ليونس: 149
جعله من الصالحين: 150
كلمة أخيرة: 153
الفهرس 155

كتب مطبوعة للمؤلف

1 ـ الآداب الطبية في الإسلام
2 ـ ابن عباس وأموال البصرة
3 ـ ابن عربي سنيّ متعصب
4 ـ الأبواب في عهد الرسول ′: نصوص وآثار..
5 ـ أبو ذر لا إشتراكية.. ولا مزدكية
6 ـ أحيـوا أمـرنا
7 ـ إدارة الحرمين الشريفين في القرآن الكريم
8 ـ إسرائيل.. في آيات سورة بني إسرائيل.. تفسير ثمان آيات..
9 ـ الإسلام ومبدأ المقابلة بالمثل
10 ـ الإعتماد في مسائل التقليد والإجتهاد (صدر منه جزء واحد)
11 ـ أفلا تذكرون «حوارات في الدين والعقيدة»
12 ـ أكذوبتان حول الشريف الرضي
13 ـ الإمام علي والنبي يوشع ′
14 ـ أهل البيت ^ في آية التطهير
15 ـ أين الإنجيل؟!
16 ـ بحث حول الشفاعة

17 ـ براءة آدم × حقيقة قرآنية

18 ـ براءة يونس × في القرآن الكريم (هذا الكتاب)

19 ـ البنات ربائب.. قل: هاتوا برهانكم

20 ـ بنات النبي ' أم ربائبه؟!

21 ـ بيان الأئمة وخطبة البيان في الميزان

22 ـ تحقيقي در باره تاريخ هجري

23 ـ تخطيط المدن في الإسلام

24 ـ تفسير سورة ألم نشرح

25 ـ تفسير سورة التكاثر

26 ـ تفسير سورة التوحيد (الإخلاص)

27 ـ تفسير سورة التين

28 ـ تفسير سورة الضحى

29 ـ تفسير سورة العاديات

30 ـ تفسير سورة الفاتحة

31 ـ تفسير سورة الفلق

32 ـ تفسير سورة الكافرون

33 ـ تفسير سورة الكوثر

34 ـ تفسير سورة الماعون

35 ـ تفسير سورة المسد

36 ـ تفسير سورة الناس

37 ـ تفسير سورة النصر

38 ـ تفسير سورة هل أتى (جزءان)

39 ـ توضيح الواضحات من أشكل المشكلات

40 ـ الجزيرة الخضراء ومثلث برمودا؟!

41 ـ الحاخام المهزوم

42 ـ حديث الإفـك

43 ـ حقائق حول القرآن الكريم

44 ـ حقوق الحيوان في الإسلام

45 ـ الحياة السياسية للإمام الجواد ×

46 ـ الحياة السياسية للإمام الحسن ×

47 ـ الحياة السياسية للإمام الرضا ×

48 ـ خسائر الحرب وتعويضاتها

49 ـ خلفيات كتاب مأساة الزهراء ÷ (ستة أجزاء)

50 ـ دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام (أربعة أجزاء)

51 ـ دراسة في علامات الظهور

52 ـ دليل المناسبات في الشعر

53 ـ ربائب الرسول ′ «شبهات وردود»

54 ـ رد الشمس لعلي ×

55 ـ زواج المتعة (تحقيق ودراسة) (ثلاثة أجزاء)

56 ـ الزواج المؤقت في الإسلام (المتعة)

57 ـ زوجات الإمام الحسن ×: أكاذيب وحقائق

58 ـ زينب ورقية في الشام!!

59 ـ سلمان الفارسي في مواجهة التحدي

60 ـ سنابل المجد (قصيدة مهداة إلى روح الإمام الخميني وإلى الشهداء الأبرار)

61 ـ السوق في ظل الدولة الإسلامية

62 ـ سياسة الحرب في دعاء أهل الثغور

63 ـ سيرة الحسن × في الحديث والتاريخ (المجتبى من سيرة المجتبى) صدر منه جزءان

64 ـ سيرة الحسين × في الحديث والتاريخ (أربعة وعشرون جزءاً)

65 ـ شبهات يهودي

66 ـ الشهادة الثالثة في الأذان والإقامة

67 ـ الصحيح من سيرة الإمام علي × (ثلاثة وخمسون جزءاً)

68 ـ الصحيح من سيرة النبي الأعظم ' (خمسة وثلاثون جزءاً)

69 ـ صراع الحرية في عصر الشيخ المفيد

70 ـ طريق الحق (حوار مع عالم جليل من أهل السنَّة والجماعة)

71 ـ ظاهرة القارونية من أين؟! وإلى أين؟!

72 ـ ظلامة أبي طالب ×

73 ـ ظلامة أم كلثوم

74 ـ عاشوراء بين الصلح الحسني والكيد السفياني

75 ـ عصمة الملائكة بين فطرس.. وهاروت وماروت

76 ـ علي × والخوارج (جزءان)

77 ـ عهد الأشتر مضامين ودلالات (جزءان)

78 ـ الغدير والمعارضون

79 ـ القول الصائب في إثبات الربائب

80 ـ كربلاء فوق الشبهات

81 ـ لست بفوق أن أخطىء من كلام علي ×

82 ـ لماذا كتاب مأساة الزهراء ÷؟!

83 ـ مأساة الزهراء ÷ (جزءان)

84 ـ مختصر مفيد (أسئلة وأجوبة في الدين والعقيدة)، (ثمانية عشر جزءاً).

85 ـ مراسم عاشوراء «شبهات وردود»

86 ـ المسجد الأقصى أين؟!

87 ـ المعجزات: رقي وغايات، للبشر في الحياة

88 ـ مقالات ودراسات

89 ـ من شؤون الحرب في الإسلام

90 ـ منطلقات البحث العلمي في السيرة النبوية

91 ـ المواسم والمراسم

92 ـ موقع ولاية الفقيه من نظرية الحكم في الإسلام

93 ـ موقف الإمام علي × في الحديبية

94 ـ ميزان الحق «شبهات وردود» (أربعة أجزاء)

95 ـ نقش الخواتيم لدى الأئمة ^

96 ـ وقفات مع ناقد

97 ـ الولاية التشريعية

98 ـ ولاية الفقيه في صحيحة عمر بن حنظلة

قيد الإعداد

1 ـ الإعتماد في مسائل التقليد والإجتهاد ج2

2 ـ تفسير سورة البينة

3 ـ مختصر مفيد ج19